

حاتم علي

موت مدرس التاريخ العجوز

قصص



ألف ياء
Alif Yaa



موت مدرس التاريخ العجوز

مكتبات «ألف باء» A1Yaa

المؤلف: حاتم علي
الكتاب: موت مدرس التاريخ العجوز (قصص)

صدرت النسخة الرقمية: حزيران/يونيو 2026
الطبعة الأولى 1988، دار الأهالي - دمشق - سوريا.

- الناشر: «ألف ياء Alfyaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (، PDF، Mobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ «ألف ياء Alfyaa»
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء Alfyaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود
- اللوحات الداخلية: الفنان الفلسطيني محمد أبو صلاح

حاتم علي

موت مدرس

التاريخ العجوز

قصص

الفهرست

11	القسم الأول
13.....	العلبة
21.....	الصفقة
39.....	ذوو الياقات البيض
47.....	الجمهور يصفق طويلاً
61	القسم الثاني
63.....	وحشة
71.....	أربعة وجوه لمأساة السعدي
93.....	مدينة ليست للبيع
101.....	موت مدرس التاريخ العجوز

إذا كان في القصص ما يستحق أن يُهدى

فإلى الغالية د. الرحبي، طبعاً

سنرتاح، سنسمع ترانيم الملائكة، وسنرى
السماء مرصعة بالماس، سنرى كيف تغرق كل
شورور الدنيا، كل ألامنا في بحر الرحمة، الذي
سيغمر العالم كله، وستصبح حياتنا هادئة،
رقيقة، عذبة كالحنان.. أنا أوّمن، أوّمن.

تشخوف

القسم الأول

1. العلبة
2. الصفقة
3. ذوو الياقات البيض
4. الجمهور يصفق طويلاً.

العبة

مبتكرات «آي.آي.آي»

وقفْتُ أمام محل بيع الورود، ترددتُ طويلاً، ثم قررت، اشتريتُ وردة بلون الجرح وخرجت مرتبكاً.. أخفيتُ الوردة بين طيات الثياب فانتشر لونها في خدي.. شددت قامتي ومشيت بين الناس.. اقتربتُ من المكان فازداد ارتبائي.. كنت تنتظرين، ناديتكِ فجئتِ، ألقيتِ التحية فلم يخرج صوتي، بينما الدرج انسحق تحت قدميكِ ثم سحل لتحت، وكنيتِ فوق. فوق. فوق، فبدوتِ كاعتناق ناهد نحو عصفور في الأفق...

«كأنت أجمل الصبايا، في قدها تمشي التلال والأشجار.

وفي شعرها ليل الكروم، وفي عينيها انفضاح الأفق،

ساعة طلوع الشمس».

ودون أن نتحدث مشينا غالبت ارتبائي وتحدثتُ، طارت العصافير في البساتين البعيدة، فرفرفت روعي، نسيتُ المصنع والورديات، قلتُ لكِ تعالي نركض بعيداً حيث لا أبنية ولا شوارع ولا ناس ولا أوامر، حيث لا شيء سوى سماء زرقاء واسعة.

قلتُ لي: لم يخلق الله أجنحة للبشر، ففهمتُ بحثت حولنا عن مكاننجلس فيه، تحسستُ جيوبي فغصصتُ، تمالكتُ نفسي ودخلنا أقرب مكان صادفناه، جلسنا على طاولة واحدة، وطققتنا أصابعنا، ثم تشاغلنا بالنظر إلى المكان، قلتُ لنفسي لقد تورطت..

سألتكِ: ماذا تشرابين؟



م. ابو صلاح -

M. Abou Salan -

صوت الآلات يرافقتني يطغى على الأصوات الأخرى،
نفضتُ رأسي كمن يعلق بنطالاً على حبل، تشجعتُ واقترحتُ
أن نأخذ علبتين من شراب السعادة..

قلتُ في سري: الذي تعرفه أفضل من الذي تجهله، ثمنه
معروف، وجنسه مكشوف، صنع يدي، وأطلتُ الشرح، كنتُ
أنوي أن أقف على الطاولة كفارس بلسان كسيف، وقادتني
مباهاتي إلى البكاء وكأني كنتُ أتحدث عن مقبرة، نظر الناس
إلينا، فأحسستُ بارتباكك، كنتُ كمن يمسك ماء، خفتُ أن أفقدك
فانصعتُ إلى أوامرك كالطفل، كفكفتُ دموعي وأسندتُ رأسي
إلى يدي ونظرتُ إلى عينيك.. سماء بلا ضجيج، تمنيتُ لو تنبت
لي أجنحة لو يطلع من الأرض جبلٌ يصل إلى السماء، كنتُ
أخذتكِ وطرتُ إلى القمة، ومن هناك رفعتُ صوتي وناديتُ:

- ياالله فك سجنى وأطلق قدمي في الأرض... -

قلتُ لي: نجاكُك سيشدك إلى العمل..

سألتُ نفسي: وكيف أنجح؟ أردتُ أن أقول لك: روعي خفيفة،
تحب الطيران، قدماي تمشيان على هواهما ونفسي تهفو إلى
عالم بلا حدود ولا توقيت ولا جدران..

لكن النادل أتى بالعلبتين فسكتُ. العلبتان فوق الطاولة.
تحسستُ واحدة منهما بأصابعي، للحظة شعرتُ أنني غريب
عنها، أردتُ أن أقول لها: أنا خالقك فلم أفعل.

امتدت يدي تصلح ربطة العنق.. كانت كالحبل يشدني إلى
جدار، فتمنيتُ أن اخلعها، قالت لي نفسي: عيب فالمكان محترم،

والمرأة تحب الرجل المشدود من رقبتة. تناولت العلبه، فتحتها بحركة قصدت أن تكون رشيقه مبهره - كم أتقن ذلك - ثم سكبت محتواها في الكأس النظيفة، تمنيت لو أرشفها مباشرة، من العلبه إلى الفم دون وساطة، قالت لي نفسي: العادة أماره بالسوء فأحجمت عن نزوتي...

طال الصمت بيننا، فتذكرت الورد، بحثت عنها في خلسة عنك فلم أجدها، نزلت تحت الطاولة أتابع البحث، خفت أن أقلب الطاولة فخرجت وأنا أقول: العوض عند الله، وقررت أن أجلب باقة كاملة في المرة القادمة..

قلت أستر ارتياكي: شراب لذيذ!

تحرك وجهك، لم أفهم الرد، ملت إلى الاعتقاد بأنك تشاركيني الرأي، قلت لنفسي هكذا أفضل، الوفاق في الآراء يسهل الحياة الزوجية إن شاء الله، تشجعت فمضيت في الشرح: مصنوع من أجود أصناف المواد الأولية، بترخيص من شركة عالمية، ثم فصلت أسماء المواد ورددتها إلى أصولها، قالت نفسي: أحسنت في اختيار المشروب، اصطدت عصفورين بعلبة، سعرها في جيبك، ولسانك (منطلق) في موضوع تعرفه، غدا تخطب وبعد غد تتزوج، وبعدها لن تدخل مكاناً كهذا، شعرت للحظة كأنني أقع في حفرة، ازداد ضغط ربطة العنق فارتفع صوت تنفسي، جال بخاطري أن زواجي سيشدني إلى العمل بحبل لا ينقطع، ضربت كفا بكف، وتساءلت: ما الحل؟ شتمت طبعي وكسلي، نظرت إلى عينيك، وددت لو أطيّر في سمائهما.. بقيت في الكرسي ساعة كاملة، ازدحم المكان بالناس،

فنظر النادل إلينا، وكأنه يضع رجليه في ظهرينا، احمر وجهي أشحت بنظري عنه، فوق بصري على امرأة، سبحان من صنعها. غالبت خيبيتي وقلت: على قدر غطائك امدد رجليك، والطيبات للطيبين.

ابتسمت كأنك عرافة تقرأ الأفكار، ثم أرحت يديك فوق الطاولة، كانتا ممدودتين أمامك، مثل جثتين، دبت الحياة في عروقي، وكما يحدث عادة، عصرتيديك بقبضتي.. أمسكت بك، حان وقت الطيران، قلت: جاء النادل.. أبعدت يدي قبل أن يمسكنا متلبسين بالفعلة، وبغير قصد احمر وجهي، احترت في أمري. خيل إليّ أنني أحس دمي يمشي في عروقي.. تساءلت: لماذا الخوف؟ والنقود في الجيب. أردت أن أقول للرجل على سبيل الحديث والممازحة: أنا صانع هذه اللعبة، لكنني سألته على الفور: كم الحساب؟.

-.....!

بدا العالم كالتفاف موصول حول دائرة تدور، وبلا تفكير فككت ربطة العنق وتركتها تتدلى فوق صدري، قلت في سري: لن ألبسها بعد اليوم، وماذا يفيد الندم؟ فقد قال النادل كلمته وتركني في بركة لا قرار لها ولا شاطئ، وأنا أغرق في شبر ماء.. جففت عرقي، سألتني: ما الأمر؟ جاهدت كي أقول: لا شيء.

نظرت حولي أحصي الحضور، وأعد العيون التي ستشاهد فضيحتي، نظرت في عينيك.. لو أنني أطير في السماء.. خطر لي أن أخرجك من هنا، فالفضيحة ستهون أمام أعين الغرباء

لكنني لم أستطع مكاشفتك، فممت إلى النادل أرجوه، جاهدت كي أجعله هادئاً، كنت ترقبينا من بعيد، تشاغلنا، قلت له: اتق الله يا سيدي، شرحت له الأمر فلم يقدر ظرفي، قلت له: أنا صانع هذه اللعبة، بيدي هاتين يشهد الله.. لم يخطر ببالي أن ثمنها سيكون مرتفعاً هكذا.. أي نعم، الجلسة هنا على مستوى رفيع، ولكنني لم أحسب حسابي، أطلق قيدي وسأعود بعد أن أوصل المرأة إلى بيتها. أمسك بمعصمي يمنعي، أقسمت له، خيل إلي أنه بلا أذنين، طرفت عيناي نحوك، أشحت بنظرك، ازداد ارتياكي، أمسك بيدي والساعة تطوقها، قلت كالغريق: خذها واتركني.. ابتسم الخبيث ووافق..

عدت إلى الطاولة، كان رأسك منكساً، أصابني الهلع، تساءلت: هل كنت شاهدة على ما حدث؟ وخرجنا.. ودون أن نتحدث مشينا، كنت متعباً خائراً القوي، مثل أرنب في البراري، قلت لنفسي: لم يخلق الله أجنحة للبشر.. صوت الآلات يرافقتني، يطغى على الأصوات الأخرى.. نظرت إلي كأنك تقولين: فضحتني!، ثم اختفيت، دون وداع أو اتفاق على لقاء..

وقفت أمام باب المصنع ثم قررت أن أعود، لكنني دخلت.. كانت العلب في أماكنها أكداً، مشيت بينها، تحسستها بيدي، وكأن ما بيننا قد انقطع، هكذا ابتعدت عنها متجهاً نحو الآلة. ثم وقفت وراءها - كالعادة - حتى المساء...

17/2/1987

الصفحة

مبتكرات «أبي آي» AIYaa

عند الصباح، تردد خليل في الخروج، وقف خلف الباب طويلاً، نظّم في رأسه دعواه: الإنسان وحيد وحزين، وصحبة امرأة تفتح الشهية على العيش، وإذ أصر أحدهم على السخرية مني، فسأرده بعنف. سأدير ظهري وأمشي، وفي هذا جوابي.

تعبت من الوحدة، من الليالي الطويلة، حيث لا قمر ولا أغنيات، أريد أن أسعد بقية حياتي، إنني لا أخاف الموت، لكن حياتي مخيفة إلى حد أن يحسه غيري، حتى لو عملوا قصتي فيلماً، وعرضوا فضيحتي على الناس.

مشى نحو بيتها، سار بمحاذاة الجدران، ارتطم بعمود منتصب، أو بمدخل نافر، لبناء مغبر، هذه عادته عند المسير، قرب الحائط كان يشعر بالأمان، اليوم خاصة، تمنى لو يحصل على قبعة الإخفاء، خلسة انسل في شوارع المدينة، يدعو الله أن لا يصادف أحد معارفه، حتى إذا وصل باب بيتها، في ذلك الحي الأكابري الجميل، حمد ربه، وتمنى لو يصلي ثلاث ركعات، مرور يده على ثنية سرواله الجديد، مسح عرقه المتصبب فوق جبينه بمنديل أصفر.

كان من عادة العرق أن يتسلل عبر حاجبيه الخفيفين، فيضطر إلى أنيغمض عينيه ويفتحهما على التوالي حتى يدور رأس محدثه. أصابه الرعب حين فكر في ذلك، فأعاد المسح حتى اتسخ المنديل.

قبل أن يطرق الباب رتب سترته المنسدلة فوق كتفيه، فتذكر «الفرزة»، استغرب هذا الربط، أدار بصره في المنطقة حوله، تحت سياط العادة، وقع بصره على صناديق القمامة وأكياس

الأوساخ المجمعة عند الحاوية، شتم في سره هذا الزمان وتمنى لو يفعل ذلك علانية، خطر له أن يعود قبل أن يتورط، لكن قدميه قادتاه إلى الأعلى، قدم إلى الأمام، وأخرى إلى الخلف، قرأ آية الكرسي، وبسمل، خبط صدره، ناحية الجنب الأيسر فلم يهدأ قلبه، ظل ينتفض مثل أرنب مذبوح، أحس أنه يمشي في منطقة غريبة لم يعرفها من قبل، استنكر مثل هذا الإحساس. قال لنفسه: - الحارة بيتك، دائماً كنت تقضي فيها ليلتك، فاصعد، القطها وبعدها يأتي الطيران، والحظ يلوح مرة واحدة، ثم يبحر، فاهجر فقرك ووحدتك، هذه فرصتك..

وطرق الباب... فانفتح..

تعمد أن يدخل بقدمه اليمنى، وأن يقول شيئاً في سره، استقبلته صاحبة البيت بالترحاب. أطالت النظر إلى لباسه، وأطال النظر إليها، انبسطت أساريرها فانبسط.

فتش عن كلمته الأولى، حار في مقدمة ينتقي، تذكر أنه سمع ذات مرة عن سر من أسرار هذا المخلوق العجيب، فلقد قيل: لا تأتها مباشرة، فالمرأة تحب المداورة، حسن قال لنفسه، ولكن كيف؟ هل أقول إن المنطقة جميلة؟ والجو على أحسن حال؟ قالها واتكل على ربه، ردت عليه بالإيجاب فجلس، ثم لعن نفسه لأنه استبق دعوتها. انساب عرقه مباشرة إلى عينيه، لعن حواجبه وحظه الذي أعطاه من كل شيء قليلاً، وغير مرة قال لربه: أعدل، فعاد واستغفر!

- أريد أن أطلب ابنتك.

ارتفع حاجبا المرأة الكثيفان، زمت بؤبؤي عينيها، فاستدرك:

- أقصد، يدها فقط.

وقبل أن يتابع، حكى له عن أملاكها وأموالها، وعن قريبتها الذي يملك مالا تأكله النيران، وكيف أن له قدماً في الحياة وأخرى في القبر، جعل الله في قدوم خليل، مقدم السعاة. فأجابها بالمثل:

- أنا أيضاً أحب الصراحة، لأنها تنجينا من الوقوع في حبال كذبنا والعياذ بالله. فقد أقول لك: اسمي فتحي محمود فتحي مثلاً، وعملي موظف في المالية مثلاً، بينما يكون اسمي الحقيقي خليل وعملي زبال ليلي، فنتحدث عن الأموات والأحياء وما على ظهرها، فتتسبين، وتساليني الاسم بلا زغرة؟ فأخطئ وأقول لك اسمي الحقيقي، عندها تسود وجوه وتبيض أخرى. لذلك سأكون صريحاً أنا الآخر وأقول: اسمي فتحي محمود فتحي، موظف في المالية.

ترددت اللفظة الأخيرة في مجتمه، كان لها صدى عجبياً، بعث الرعب في نفسه، ترددت الكلمة مرات ومرات، تطايرت - تناثرت، وفي كل بيت تساقطت أحرفها، وأحدثت انفجاراً.

وحارت المرأة، بين أن تغضب، أو تزغرد، فإذا فكرت في نصف الجملة الأولى، اغتمت وشتتت الوظائف والموظفين، وإذا تناست البدء، ويممت وجهها نحو الشطر الثاني، انطبعت الكلمة في وعيها بأحرف من ذهب.

وقبل أن تستيقظ من تأملاتها، بدأ هجوماً جديداً:

- الشباب اليوم يتشابهن مثل المسجلات والمراوح والأحذية،

مفبركون حسب ماركة مصممة مسبقاً ومن يعثر على شاب
مختلف كمن يعثر على كنز!

لحقت اللفظة الأخيرة، سابقتها، أحدثت انفجاراً آخر،
فصرخت المرأة البدينة، وقد فشلت في إخفاء فرحتها:

- ارقصي يا وفاء.. جاءك الكنز.

وجاءه صوتها من المطبخ ربيعاً ممطوطاً، مثل مواء قطة -
تذكر كم تزعجه القطط والكلاب أثناء عمله فانتصب أمام عينيه
برميل قمامة، نفض رأسه يبعد الصورة عنه، لولا بدانة المرأة
المفرطة، لقفزت من مكانها.

- لا يمكن أن أرقص يا أمي، فقد تنسكب القهوة!

وضحكت الأم:

- دمها خفيف، ليست كبنات اليوم.

أدرك أنه مدعو لقول شيء، بدافع المجاملة، ومن تحت إبطه
كما يقال، سلّ كذبة أخرى:

- لقد قالوا لي إنها فريدة من نوعها.. لا أخت لها.

- لها أخت، لكنها متزوجة!

واقتمحت الفتاة الغرفة، تحمل قهوة أهلاً وسهلاً، كانت طويلة
وناحلة، ذات شعر منفوش مائل إلى الحمرة فشمخت بين عينيه
مكنسة ذات عصا طويلة. نفض رأسه مرة أخرى، واستغفر
ربه، متجاهلاً دهشة المرأة ذات الحاجبين الكثيفين.

- تفضل، صنع يدي.

- سلمت يداك. قهوة رائعة لم أذق مثلها من قبل. فالبن هذه الأيام مخلوطة مع نشارة الخشب المطحون، قاتل الله التجار.

وشرب. أحس أن ثعباناً يمشي عبر حلقه. وبصعوبة طلب سكرأ، علّ السكر يخفف الطعم اللاذع فانطلقت الفتاة كالمهرة،.. مالت المرأة عليه، أحس أنفاسها الساخنة المشبوبة برائحة البصل:

- تحبها حلوه؟

- ومن لا يحبها حلوة يا عمتي العزيزة؟

- لكن الأشياء الحلوة تكلف طالبها.

- أنا جاهز لكل غال ورخيص.

- عادت الفتاة، تسبقها أغنيتها: البلح عالي يا ولد، والسكر عالي يا بلد. عندها فقط ندم لأنه لم يغن، عندما أحس برغبة في الغناء. ضحكت حين رأتهما يصغيان بوله، وقد صار لون وجهها باحمرار شعرها:

- السكر غير موجود في مكانه. فقالت الأم:

- آه، لقد نسيت يقولون لا يجوز أن تعلم اليد اليسرى ما فعلته اليمنى من خير، ولكنك أقرب من اليد، القصة أن امرأة فقيرة مرت بنا فأعطيناها السكر لتذيبه مع الماء وتسقي أطفالها، فالحليب مفقود هذه الأيام.. كان الله في عون الأطفال.

تحدثوا عن السوق، والأولاد، وحالته المادية، وأحوال الدنيا التي مالت، وكررت دعوتها بشرب القهوة، فلا رد الله من رد رزقه، انشغلوا بالنقاش فتطايرت الأيدي، وتحركت الأصابع،

وصار بالإمكان رؤية قطع صغيرة من البصل، على الطاولة أمامهم.. دخل ولد، ووقف يتفرج، بعد انتهاء الجدل.

قال:

- أمي تريد فناجيننا وكؤوسنا وكل أغراضنا.

كزّت المرأة البدينة على أسنانها، اصفر وجهها، تلعثمت:

- الآن يا ابن الفضيحة؟

وانزاح طرف العصابة عن عينيه، أدهشه ما سمع، رأى فجأة جدراناً كالحة، ومقاعد أطلت حشوتها، فأحس بقوة غريبة تندفع في شرايينه وتطلق لسانه.. خرج الولد بالفناجين والكؤوس والملاعق وكأس الماء، فاقتربت المرأة منه تكاد ترقع بين قدميه:

- لقد استعاروا منا هذه الأشياء ذات يوم، وظلوا يستعيرونها كلما جاءهم ضيف، حتى ظنوا أخيراً أنها لهم، رأيت وقاحة كهذه؟

وقبل أن يجيب، أدارت المرأة دفة الحديث، بمهارة البحار حين يكاد الموج يطرحه:

- ألم يترك لكم المرحوم شيئاً؟

انساق وراءها، وقد ازدادت ثقته بنفسه:

- ترك لنا الشرف والسمعة..

ولما تحجر بؤبؤ عينها مرة أخرى، عاد اضطرابه إليه، فاستدرك:

- ووسام!

صرخت المرأة

- من الذهب؟

- مطلي بماء الذهب.

- ومن الداخل؟

- هذا ما لا أعرفه، قالت لي أمي يوماً: إن الأيام القادمة ستحكه، وعند المحك بيان المخفي.

زمت المرأة شفتيها كمن ينطق حرف (او) بشكل موصول، وظلت على هذه الحال مدة من الزمن أدرك خليل خلاله أن المرأة تفكر، وتعاني وأنه مطرود لا محالة، وكما يحدث عادة في القصص، خاصة، عند المواقف الحرجة، كحالة خليل هذه، يتدخل فجأة من يقلب الميزان.

اندفع رجل ذو شاربين كبيرين خشنين، كالعاصفة حين تدخل حقلًا، فتدوس وروده، ضرب كفا بكف ثم شد شعره كالمجنون:

- ما هذا؟ ألم يعد هناك ذوق؟ هل أنتظر سنة حتى أحصل على أجرة شهر؟

وكمن تلقى ثلاث صفعات متتالية وأخرى على الرقبة، وقفت المرأة البدينة تنقل بصرها بينهما، أما خليل فكان كمن دس رأسه عنوة في بركة ذات صباح تشريني. ونطقت المرأة أخيراً. فتوسلت:

- ارجع في وقت آخر. عندنا ضيوف.

- ولهذا بالضبط جئت يا عيوني. لن أخرج إلا بأجرة البيت كاملة.

قال خليل لنفسه: فلتلعب دور البطل، إنَّ ما يعجب النساء في الرجل هو تمثيله لهذا الدور. ولكن لا تذهب في ذلك بعيداً، فتخسر، والمرأة لا تحب البطل الحقيقي، لأنها تفقده..

- ما القصة يا سيد؟

- الناس صاروا بلا دم.

- من الجوع يا معلم.

- أنت الآخر تتحدث عن الجوع، يا حسرتي عليكم، ويقولون إنكم عثرتم على كنز!

ساد صمت مهيب، استنجدت عينا المرأة البدينة بمن يشرح لها، كانت كمن يقف أمام جدار.

- هيه هيا اضحكوا على عقلي، لتأكلوا حقي. أين الخزنة؟

- خزنة ماذا؟

- المالية.

- أي خزنة ومالية وأي كنز؟؟

- ماذا إذن؟ طلعت جرة فخار يا روجي..

وأعقبها بضحكة مجلجلة، ثم مد يده فقرص فخذها، ودفع كوعه في خاصرتها، يتلمس لحم المرأة البدينة فانقضت:

- اخجل على دمك، يوجد غريب.

ثارت كرامة الرجل.

- وهل فعلنا الحرام لا سمح الله؟ ولكن الحلال لا يعجبك.

ثارت كرامة المرأة أيضاً، ولكل منهما كرامة:

- وهل أضحت الدنيا بلا رجال؟!!

وأطلت رؤوس الجيران من الأبواب والنوافذ، ومن كل شق آخر، وأقسموا أغلظ الإيمان أنهم سمعوا الأخبار المؤكدة عن الكنز والمالية وكل ما يثير الشهوة، ويفتح الطرقات.. ومن بين الجمع تقدم الولد مع الكؤوس والفناجين وأشياء أخرى:

لم نسمع الخبر إلا متأخراً. فاستردوا ممتلكاتكم، مع الشكر لأنكم تفضلتم وأعرتمونا هذه الأشياء التي تملكونها منذ زمن بعيد. والتي يعرف الجميع أنها لكم أنتم فعلاً.

أشرفت في عيني المرأة ضحكة لا راد لها، ازدادت حين أكد الجميع صحة ما قيل، وتبرع بعضهم بالقسم بالكتاب الكريم، ولما لم يجدوا نسخة في الحارة كلها، تناسوا الفكرة وتأسفوا على الوقت الذي هدره في هذه القضية الجانبية، فبادر خليل إلى طمأننتهم، مؤكداً أنه لا يشك في أي كلمة قيلت.

خطب فيهم شارحاً سعادته، عاداً نفسه من الرجال القلائل المحظوظين في هذا العالم، حمد الصدف والأقدار التي قادتته إلى هذا البيت الكريم.. وفيما هو يحدثهم، تذكر تلك الليالي الباردة حيث كانت الفتاة تروح وتجيء خلف النافذة، كأنها تقول له: طق موت.

ولما رأى صاحب البيت جموع الناس تقدم الطاعة لخليل خجل من نفسه، فاعتذر:



- حتى الحلق يا جار، وشوكة تخرز حلق من لا يصلي على النبي، وأثنى شارب يركع على حدائه!

أحس خليل، أنهم يخلعون ملابسهم، قطعة، قطعة، وأراد أن يضحك حين تذكر نفسه تلك الليالي مخبئاً وجهه عن أعين الناس. كبح رغبة جامحة في أن يبصق عليهم. وانسحب الجميع حفاظاً على راحته، عيونهم تكاد تسحب وراءهم، العيون نفسها التي كانت تهرب قرافاً من منظره، أذهله ما حدث. فجأة، وجد نفسه في موقف لم يجرؤ على تصوره ذات حلم. ورغم ما جرى، لم تنس المرأة كيف تستر ما انكشف:

- ها أنت ترى أن البيت ليس ملكنا. لكنني لم أكذب عليك. لقد كان ملكنا فعلاً. وبعد وفاة المرحوم البيك، اضطررنا لأن نرهنه عند ذلك الرجل.. وارتج عليها الأمر. فلم تجد ما تقوله. بادر خليل إلى تهوين وتبسيط المسألة:

- الدنيا لا تفرق بين ابن الأصول وبين البندوق يا عمتي. عندما تريد ان تخبط فهي تخبط الكل فلا تنحرجي لأنني أنا أيضاً، أصبت بتلك الخبطة.

اقتربت الفتاة منه، لم تنهرها أمها، أو تلعب لها حاجبيها الكثرين، فازدادت اقتراباً، حتى أحجلته وقالت بدلع:

- على كل حال، سنذهب من هنا. ولن نتركك وحدك يا أمي. أليس كذلك يا فتحي؟

اللحظات ظنها تحدث شخصاً آخر، لم يكن معتاداً اسم فتحي هذا، وانبرى يقنعهم بضرورة التمسك بالبيت شارحاً لهم أزمة

السكن الحادة التي تعيشها البلد، فاستنكرت الأم الدعوة، خائفة من الوحدة، فأقسم خليل بالطلاق، وشتتم أولاد الحرام، داعياً إلى التضامن مع الأقارب، وأحست المرأة أنها تجلس على نار، فقامت وقعدت، وأخيراً قالت، والشرر يتطاير من عينيها، فيشعل في قلب خليل، الحريق:

- وبيتك؟ بيت أهلك؟ بيت أبيك؟

- إنه مرهون يا عمتي، وبالخبطة ذاتها التي رهنتم بها بيتكم..

وزمت المرأة شفيتها كأنها تقول الحرف نفسه (او)، طفح في عينيها بله وغباء، بدا شحمها أكثر اكتنازاً، ابتعدت الفتاة عنه حتى كادت أن تقع عن الكنية. سكتت الأم عن الكلام وقد اكتشفت أن محدثها يلف ويدور، وأنهم وقعوا على كيس فارغ، في قاعة ليرات وقروش، وحسب.. وكالغريق، تعلقت بما تبقى من حطام العزيز المنتظر:

- ولكنك موظف ممتاز في المالية، لنا قريب يعمل هناك أيضاً ويقبض كثيراً. إذن فأنت مرتاح؟

تدخلت الفتاة:

- في أي قسم تعمل أنت؟

- وفي أي قسم يعمل هو؟

- ليس في قسم الضرائب.

- أنا أعمل في قسم الضرائب.

وتنهذ مرتاحاً، فعاجلته الأم:

- تذكرت، إنه يعمل في قسم الضرائب بالذات.

وغمزت ابنتها، فعرفت أن أمها تعد له الحفرة

- ماذا كان اسمه؟

سألته، فرد عليها بسؤال:

- ماذا كان اسمه؟

- لقد نسيت

- وأنا نسيت

- أنظر إلى ذاكرتينا

- إننا ننسى.

- وماذا تعمل؟.. إذا كنت تذكر ذلك.. حار.

- أعمل.. عملاً.. أنا مدير القسم تقريباً..

انفلتت العبارة رغباً عنه، أحس انه يببالغ ويكذب بصورة مكشوفة، تمنى أن يلتم الجمع مرة أخرى، وأن تزعق امرأة:

- مدير على وزن وزير..

وصرخت الفتاة، تساعد أمها في الحفر:

- لقد تذكرت. إنه مدير القسم أيضاً..

- صحيح؟

وهزت المرأتان رأسيهما.. أكثر ما أثار غضبه وحنقه، ذلك الشعر الأحمر!

- ألم أقل لكما إنني عوقبت ونحيت جانباً عن الكرسي؟

- ومتى حدث هذا؟

- عندما أصبح هو مديراً.

لطمت المرأة وجهها، وندبت الفتاة حظها، واقترحت الأولى على الثانية أن تعفر وجهها بالتراب، ولكن انقطاع المياه منع الفتاة عن الفكرة.

- ما الأمر يا عمّة؟

- عمى الدب.

وانثنى خليل يستجدي عمته:

- أرجوك لا ترديني خائباً.

وفرد على أصابعه ما يملك من أوراق مالية، وأقسم إنه ليس موظفاً على الإطلاق، ولن يكون. وكشف لها أنه قد أخفى حقيقة عمله، رغم أن العمل بصفة عامة ليس عيباً، خاصة إذا كان في الليل وأطال شرح فكرة أن الليل ستار العيوب، فقالت المرأة: إن هذه الأيام تجعل الواحد يتمسك بالليرة بأسنانه ويديه، وأكدت الفتاة أنه لا يعيش غير الشاطر، فوعدهما بتحسين أحواله، وأفضى لهما بسرّه، قال إنه يرى مستقبله أمامه وسيسير إليه حتى لو قطعوا رجليه الاثنتين، ومالت الأم على ابنتها تسألها الرأي.

فأكد خليل وقد سره تطور الأحداث:

- آخر كل شهر، سأسلمك راتبين اثنين، قولي نعم.

فقالت الأم نيابة عنها: نعم. وتساءلت الفتاة عما سيقوله الناس، فشرحت الأم الموقف:

- عندما يكسب الرجل المال الكثير، لا يهتم الناس بمصدره، وعروسك رجل محترم، موظف في المالية له صولة وجولة، ورأسنا مرفوع على جيراننا بإذن الله.

فزاد خليل واستفاض:

- الناس تحب أن تصدق بسرعة، فلنتركهم كما يريدون.

ونهضت الأم تتأكد أن لا أذن تسمع، لا عين ترى، ولا لسان يتحدث. وضحكت فرحة بعروس ابنتها موظف المالية الكبير، وابتسم خليل لحظه الذي ضحك له، وأعطاه فتاة ستكون جميلة بعد جزّ شعرها، أحس بالارتياح لمصاهرة عائلة محترمة، تمنى لو يستطيع أن يتناسى الجدران الكالحة، وحشوة المقاعد الظاهرة. ولكن المعرفة حمل ثقيل كما يقال.

وتهياً خليل للخروج رافع الرأس، بعد أن كان يدخل الحارة ليلاً، ملثماً، يقوده بغل نعلان، فطلبت عمته قراءة الفاتحة، كيف يفتح الله عليه، فيكرمه، وعندما حاولت أن تتأديه باسمه، اكتشفت أنها قد نسيت.

فقالته خجلة:

- أوصيك بالحرص وبالستر.. كي نتشرف بك يا.. عفواً الاسم بلا رُغرة؟

فأجاب:

- خليل حسين، زبال ليلي بنص الشام.

ذوو الياقات البيض

مكتبرات «أبياء» AIIYaa

الزنانة:

قضبان كالعظم، مكسوة بإسمنت لايفتته المطر، ملفوفة كقفص، مثل الرجل وقلبه.

.. قبالتني وقف أفندي أبيض طویل، ذویاقة بیضاء، وکنت هادئاً تحت النافذة، ملثٌ على الحائط، وبرأسي اتكأْتُ، قلتُ بصوت عالٍ: إنني نادمٌ، صادقاً كنت ودون قصد سقطت من عيني دمعة، علقت بين شعر الشارب. راودتني رغبةٌ مفاجئة، مرت من رأسي حتى ركبتني، انقصفتُ كعود يابس، بين يدي الأفندي الشاب ركعت:

«ارحمني، إنني بريء لا ذنب لي - أكملتُ دون توقف - إذا أردت أن تكرم الرجل فأطلق يديه وأنا رجلٌ ينفعُ فيه الإحسان، مرت عليّ حوادثٌ لو وزعتها على ألف فارس لقالوا لك قولة رجل واحد: آخ والشيطان سبحان من أطلقه، ماكرٌ رجيم، يدخلُ بين الرجل وثوبه ويزينُ للنفس سقطتها، يأخذُ البني آدم من يده، يدخله غابةً أشجارها نساء ثمارها فضة وياقوت».

التقطت أنفاسي، رحت أرقب وجهه بتقاطيعه كأنها مرسومة على قماشمشدود، عيناها جمرتان، مد يده تحت قميصه الأبيض، وأخرج علبة الدخان، أشعل سيجارة، عبقت في صدري رائحة التبغ، وازدادت حرارة المكان، نظرت ياقته ببيضاء كالحليب.. خرج صوتي مجروحاً بالندم:

«يا أفندي، أولاد الحرام أخذوا كل شيء، ولم يتركوا لأولاد الحلال قشة، وصاحبة البيت تقول: اسعوا في الأرض تجدوا رزقكم منشوراً، ثم تمد يدها، أي أرض يا أفندي، لقد سبقونا إلى

كل مكان وجمعوا رزقنا ورزقهم والعوض عند الله، حظوظ
قسمت بيننا وعلينا أن نرضى وأن نقول: الحمد لله..

له في ذلك حكمة لا تدركها عقول العباد: ذوو ياقات بيض
وجموع يطفح وسخها حتى على القماش الأسود، وما بيننا
أسوار من صفيح مدعم بالاسمنت والحجر وأسلاك شائكة، أعني
يا معين، كنت أقول كل صباح وأوي مهدود الجسم مكسور
الخطر كل مساء، وأقول قبل أن أغفو: في بيروت يفتحون
المعابر للناس، فافتح لنا طاقة أعبرها إلى شط النعيم، وإن شئت
بعد ذلك أغلقها بنيزك من عندك لا أعترض على حكمتك!..».

تحرك الأفندي، قلت لنفسي شدة الحديث، رقص قلبي،
وشعرت بدفقة من الضوء تلم رأسى وكأني كنت في غفوة
وصحوت.. رفعت صوتي:

«أريد أن أعيش حياتي، وأن آخذ نصيبي.. أريد أن أرتاح في
فراش دافئ، مع امرأة جميلة، أريد أن أمتلك مفتاحاً صغيراً،
طريقاً أمشيهِ كل صباح ومساءً، سيارة إذا لم يكن هناك مانع»:

ضربت رأسى بالجدار، خلفه كانت الشمس تمر فوق
البساتين، ولدت وفي شوق للركض فوق الأرض المحروثة
وشوق لأن أصير وأتصور.. عين لفوق وعين لقدام وتحت
ضرسي طعم لم أتذوقه في زمن من الأزمان.

طعم العيش عندما يكون الواحد منا فوق.. آه يا أفندي - قلت
وأنا انظر عبر النافذة، ضيقت عمري في خدمة الشركة، وكنت
منضبطاً دائماً كالزميرك، فقد قالوا لي أن الأمور يجب أن
تمشي كالساعة، وان البرغي الصغير كالبرغي الكبير مهم من

أجل أن تمشي الساعة، ولكنني في هذه الساعة أحس أنني لم آخذ بلانصبي وأنني ركبت غيري فوق ظهري فمد رجليه ولم يسم عليّ..

تابعت: مدير شركتنا رجل طويل وعريض، حذاؤه مرآة، لسانه سكين، وياقته بيضاء في كل الأوقات، أعطيه الأوراق وأقف فوق رأسه يقلبها ويوقع. وأنا أنظر إلى ياقته، مثل الحليب، ناصعة كالثلج.. أخرج من عنده كالأعمى، وأحلف على ألف مصحف ونبي: إنه يخرج من المكتب إلى الحمام ويعود من الحمام إلى المكتب، فيضحك عليّ أولاد الحلال ومن يسمع ويرد الحاج: الجلد نعمة من الله وموهبة مثل القلب والخلفة، وهو نوعان: نوع رخيص ينز وسخاً أسود، وفيه حبست أرواحنا. وآخر لا يطرح غير العنبر، نخب أول. حكايا كالكذب، وعقل الإنسان يُحبُّ أن يصدق. قالوا: إن غسل الرقبة بالحليب والزبدة، يجعلها شقراء مثل السمسم. وأكد الحاج: إنها وصفة لا ترد مدعمة بالبركات والدعاء.

لم أكذب الخبر، ذهبت إلى السوق واشتريت ما يلزم.. الفرع يُثقل رأسي ولا يدرجه، أنت تعرف السوق بجانب بيتها، أخذتني رجلي، تطلعت إلى يميني فإذا بي أمام بابها، قالت لي نفسي: يا ولد مد يدك وأضغط الجرس، فضغطت. أنني لا أكذب، أنا مستعد أن أعلن أمام الجميع أنني زرتها، ولم أشرب القهوة، كنت أبكي وأخذتنا الحالة، فلم نشرب القهوة،

ضغطت الجرس ففتحت الباب وأدخلتني، فبكيت.. لا أستطيع أن أبكي إلا على صدر فيه قلب يدق فماذا أفعل؟ وقفت أمامها

كالطفل فدخلت.. ولم أحس إلا ودمعي ينزل كالمزراب.

قلت لها: ولا يهملك، سأنتشلك من وقعتك، ولكل إنسان حفرة سأعيشك كامرأة وزير، طبطبت على ظهري وقالت لي: عيب. في سنك لا يبكي الذكر، ثم ذكرت النبي وصليت عليه، أحسست أن نهراً بارداً يصب ماءه في شراييني، انطفأت نار قلبي، روعي مشدودة لفوق قلت لها، مدت يدها وتحسست ياقة قميصي، كانت سوداء من وسخ الرقبة.

قلت لها: ولا يهملك، ساعات وتنقلب صورتني، ويتغير جلد رقبتني وأصير من ذوي الياقات البيض دنيا تطلعت في وجهي وفتحت ذراعها، وقالت لي: بالأحضان يا حبيب الروح. والشاطر من يبقى في حضنها ألف ليلة وليلة، دنيا ملعونة لا تسلم نفسها إلا لمن يعرف كيف يغويها، وعلى الواحد منا أن يغرّس أظفاره فيها ويقطع لقمته من لحمها بحد السكين.

جلست دقيقتين وخرجت، سألتها قبل أن تغلق الباب، فقالت إنها غير منزعجة، وقالت لي تمسك بحبل الصبر أحسن. فهو غليظ ولا ينقطع الذي أعطى الآخرين يعطيك، قسمتك وستأخذها، والعين الفارغة لا يسدها غير التراب والواحد لا يخرج من جلده، وحكايتنا مؤجلة حتى تفرج.. وكانت حزينة من أجلي..

إذا كان ذنبي أنني زرتها فكل زيارات العشاق والخاطبين دنوب، وأنا خفيف الظل، أقول كلمتي من الباب وأكسر رجلي إذا سبقتني إلى الداخل، ولكنني يشهد الله ما فعلت الحرام وما اقترفت المنكر، انظر بعيني وأتحرر، أفرك جلد رقبتني وأحلم

أنها ناعمة تلامس الياقة البيضاء وأنني عندها أعبّر الأبواب كالزير وأن الطرقات تنفتح في وجهي وأن يدي ستقبض يدها وأنني سأجرها خلفي إلى مكان في الطوابق العليا.

ساحت الزبدة فوق النار، سبعة قوالب بالضبط سكبت فوقها، سبعة أكواب من الحليب وسبع قطرات من الماء الصافي كالدمع، وبعصا الغسيل خلطت المزيج (كيس) رقبتي وفركتها بالنعنع ثم لففتها بسبع مناشف وبقيت على هذه الحال مقدار سبع ساعات ثم فككت الأربطة بعدها وعاودت الغسل، سبع أزماء تلتها نومة حتى الفجر..

نهضت متعباً، وكأنني كنت أطحن الصخر، رقبتي كأنها مسكوبة من حديد. يا ستار يا فتاح يا عليم. شققت الطريق إلى الباص مرفوع الرأس، لطمني أحدهم على رقبتي فأحسست أنني تمثال من طين هش يتفتت. لم أأخذ أو أعط معه قلت لنفسي: ترفع فأنت الآن واحد آخر.. ذو ياقة بيضاء...

ركبت الباص من جنوب المدينة، وفي منتصف الطريق استطعت أن أحرك عنقي بعد جهد جهيد، وعندما نظرت هنا وهناك. اكتشفت أن الباص يتجه نحو الجنوب هكذا فجأة.. فما الذي يمكن فعله حينئذ يا أفندي؟

أي شخص كان سينزل من الباص طبعاً. لا يمكنني أن استمر في باص يتجه نحو الجنوب وأنا أريد الشمال. طبيعي أن أصرخ طالباً من السائق أن يتوقف في أي مكان، فقد كنت لحظتها أحس بالمهانة لأن أحداً ما قد ضحك علي. ضاق صدري تفصدت عرقاً. الرجل الواقف خلفي يشد على ظهري. قلت له: من

فضلك يا أخ ارجع قليلاً. فمد بوزه ولم يرد. ماذا علي أن أفعل عندها؟ لا شيء. سكت. سكت وتقدمت إلى الأمام وأنا لم أقصد منكرأ لا سمح الله. فلماذا يثور الرجل الواقف أمامي ويصفعني ثم يبصق علي؟ قال لي: انظر أمامك، قلت لنفسني كيف؟ والرأس لا يطأطي، والرقبة مسكونة من حديد. والأنف لفيق. الرجل يبصق علي، وأنا لا أحب الشغب ولا أرد الضربة، ولكنهم جرجروني في الشارع، تفرج علي الخلق وأنا بين أيديهم كاللصوص.. وأنا لم أفعل شيئاً، شتمني الرجل واتهمني بالمنكر، فتبعه السائق، قلت لهم: أنا رجل محترم ورأسي مرفوع ولست أزعر.

ثم ملت بجسدي، كنت أقصد أن أريه الياقة البيضاء، ضحك الفاجر مني وأضحك الناس، شتموني وشتموا والدي من قبلي، أمسكت ياقتي بيدي، قال الرجل: والله لو وضعت سبع ياقات لاخترقها وسخك يا عنف..

ضرب الدم رأسي، ولم أحس إلا وقميصي على يدي ممزق مقطع، قال الرجل: لقد خلع ثيابه ولامس جسدي من الخلف.

وقال السائق: وحش مطلوق على هواه، حقود مدفوع، أراد خطف الباص إلى جهة مجهولة.

.. تجمع الناس حولي وزفوني، ركضت بكل قوتي، كنت كمن يهرب من شيء ملتصق بظهره ركضت حتى دخت، أمسكوني وضربوني بصفت امرأة بدينة في وجهي وزرعت: آه يابن المنكر، النساء أكثر من الهم على القلب.

ضحك.. الأفتدي.. حتى أنقلب على قفاه. فوددت لو انتفض

وأضر به سبع ضربات لا يطلع له صوت بعدها. عيناه مسمار
يدقني في الأرض، ياقته بيضاء ناصعة رغم العرق الذي مشى
في قميصه.. غصت بدمعي، هممت أن أقبل يديه، رجوته:
إنني بريء، لم أسرق ولم أترف ذنباً، أو فعلاً منكراً. قل لها ما
زلت أذكر هواها وأحلم بيوم نلتقي فيه، وإذا طالت غيبتني فهي
لن تدوم، ولكل حي يوم وامتحان. انقل سلاماتي يفتح الله لك باباً
وراء باب. واطلب منها أن تدعو على كل لسان يلوك سيرتي
بالقطع، قل للحاج والناس في الشركة: أنا لست بأزعر، وربي -
رب الجميع على ما أقول شهيد..

ضرب الأفندي الطاولة بكفه، جفلت وسكت، نظرت إلى
حيث انبعث الصوت، ملامحه ما زالت مرسومة فوق قماش
مشدود، انتصب واقفاً، وقفت، كنت كأني أنتظر حكماً.

قال بصوت كأنه دق المسامير:

- راجع الأقوال المدونة، ووقع.

فوقعت.

6/9/1985

الجمهور يصفق طويلاً

مبشرات «أنت يا» AIYaa

خرج الممثل كمال أشرف، من مقهى الهافانا بدمشق متجهاً نحو بيته، قبل ذلك كان عليه أن يمر ببيت صديقه، ليأخذ ولده من هناك، شد قامته وهو يمشي، لاعناً ظهره المقوس الذي أبعده عنه فرصاً ثمينة، لا تحصى، عد المرات التي كان مهيباً لأن يلعب فيها دور الفتى العاشق، تعمد أن يحف رجله بالأخرى، تقريباً للمسافة التي تفصل بينهما، وتغلغلت أصابعه ترد شعره إلى الخلف. فعل المستحيل كي يخفف عيوبه الظاهرة، استعمل ما توفر من أصباغ الشعر، وأنواع المصفقات، والمطريات، والزيوت، لبس البناتيل العريضة، وطارد الموضة من شارع إلى شارع ومن بلد إلى آخر، حتى اسمه الذي حمله على ظهره سنوات طويلة، وقارع من أجله رفاقاً وأصدقاء وصديقات، تخلى عنه أخيراً.. وقعد ينتظر فرصته وقد أجهده ما فعل، فكاد اليأس يغلبه.

كان قد لعب في حياته بعض الأدوار الصغيرة، فشخص مثله لا يمكن الاستغناء عنه في حياة كهذه، لكنه كان يسعى دائماً دائماً لأن يكون في قلب هذه الحياة، تصورها كدوامه، وأراد أن يكون مركزها، مستعد لأن تتطاير جدران داره، ولأن تتحطم أعمدة حياته الأخرى.

هذا المساء، شعر بالنشاط والحيوية، مستعداً لأن يوقف أي إنسان، ليحدثه عن سعادته ثم يصافحه ويمضي، أحس أنه يجب هؤلاء المارة، كلهم، وان صدره سيتسع لكل مضايقاتهم، لم يعد يذكر أعداءه، استطاع بعد تركيز قليل، أن يتذكر موقفاً جميلاً - أو اثنين - لزوجته، فأحبها هي الأخرى، انطلق لسانه يكرر جمل العرض المسرحي الذي يشارك بتقديمه كل مساء، أدهشه انه

يكاد يسمعها للمرة الأولى، وقدّر بعد ذلك أن الإنسان يتغير،
بتغير ظرفه، قال لنفسه:

- إنني قادرٌ على التفلسف حين يحتاج الأمر إلى ذلك، لكنني
أفضل أن أعيش اللحظة، بدل أن أنسل خارجاً عنها، لأحدد كيف
ولدت، ولماذا؟

وبلا وعي منه، ارتسمت أمام عينيه صورة الناقد المسرحي
الأول، سعيد سرحان، يرشف قهوته ويلقي بكلماته واحدة بعد
الأخرى، تاركاً بين كل منها فترة قصيرة، كأنه ينتقياً من بين
أكوام من الكلمات والأحرف والفواصل والنقاط وإشارات
التعجب..

استمع أشرف للكلمات الأنيقة التي كانت تتناثر كقطع النقود
الذهبية، تمنى لو يمتلك الحاضرون أذاناً صاغية، أزعه صوت
النرد الصادر عن الطاولة المجاورة، فتمنى أن تسقط الثريا
الصغيرة المعلقة في السقف، فوق اللاعبين، فتقضي على
أحدهما وتخرس الآخر حزناً على الأول.

واستغرب كيف تسمح الحكومة لمثل هؤلاء بارتياح الأماكن
المحترمة؟.. ردد كلمات الناقد بعد أن شطب منها ما لم يعجبه،
مثلاً يفعل ولده حين يحاول حفظ درس النشيد.

وفي كل إعادة تتساقط بعض العبارات وتتشكل أخرى، وقبل
أن يدق باب صديقه، ليأخذ ولده، خطر له أن يخبره بالأمر..
رتب المشهد كما يريد، حريصاً على عدم إظهار فرحته التي لا
تليق برجل ناضج يدرك قدر نفسه...،

قال لصديقه:

- المدينة مزدحمة..

اتكأ الصديق على الباب، ونفخ، في الداخل، كانت الزوجة تجلس على الكنبة، تشرب عصيراً، وترمقه بطرف عينها.

- الخدمات سيئة.. إننا نقضي عمرنا على الطرقات، فمتى نبدع فننا؟

بدل الصديق يده، اتكأ على الجانب الآخر، صرخ مستعجلاً الولد..

- رغم ذلك نقدم للناس هذا الشيء الجميل، المعاناة تصنع الفنان، فلتعذبنا هذه الحياة، لن نحقد عليها لأنها تدفعنا لأن نكون متميزين حقاً..

توقف، أحس أنه يبتعد، وأن الكلمات تقوده جانباً إلى حيث تنتهي الدربُ بجدار، أو جرف.

- «لقد تأخرت عليكم، إننا نضايكم، لكن زوجتي تصر على بقاء الولد في هذه المدرسة.. تريده أن يتعلم اللغة الأجنبية منذ الصغر».

دقت المرأة كعب الكأس بمنضدة الخشب، فأدرك أن الوقت المتبقي على نهاية اللقاء يوشك على الانتهاء..

- كنت أريدُ أن آخذه في الموعد تماماً.. ولكنني مشغول، فاليوم تقبلت مديحاً كبيراً من رجل كبير، أنت تعرف ما يعنيه اسم سعيد سرحان، إنه قنبلة، معلم، يقول للممتاز جيد، وللجيد وسط، أما الوسط فعلاً فلا يعجبه، لا يسلم عليه إذا التقاه في

الشارع، وينهض عن الطاولة إذا جلس عليها، قال لي: أنت ممثل جيد، انتبه إلى المعنى الحقيقي لكلمة جيد.

شد على يدي وصافحني، كاد أن يعترف بتميزي في العرض.. / واستطرد مخترعاً ما أمكنه من الكلمات:

- «لقد شتم هذا البلد الذي ينتزع الأوسمة عن صدور الأبطال الحقيقيين، ويعلقها على صدور خاوية، لا إحساس فيها!»!

نهضت الزوجة، فلاحقها بنظراته، أطل برأسه عبر الفتحة المتبقية بينذراع الرجل وإطار الباب الخشبي، رآها تمسك الولد، وتنتزعه من خلف التلفزيون، فغص، ماتت الكلمات في فمه، جاء الولد يحمل حقيبته، وفي عينه نظرة حقد، ساط بها والده، منحسراً على ضياع أفلام الصور المتحركة، شاتماً المدرسة وساعتها، فشدهُ الوالدُ وراءه نازلاً الدرج، مفتعلاً ضحكة صغيرة، معقياً إياها بكلمات قليلة:

- «لن نحقد على هذه الدنيا، لأنها كلما أوغلت في حرماننا، دفعتنا إلى التمسك بمهنتنا، جعلتنا فنانيين حقاً.. نعم فنانيين صادقين.. المعاناة.. يا لها من كلمة رهيبة».

وسكت، لأن صديقه كان قد أغلق الباب.

وعاد كمال أشرف يمشي في الشارع وإلى جانبه ولده، طرد من رأسه إحساساً مرّاً بالخيبة، لقد كانت لحظات جميلة، تلك التي يتحدثُ الإنسان فيها عن نفسه، لا تقل جمالا عن اللحظات التي يتحدث فيها الآخرون عنه، ولقد صدق الرجل كل ما قيل، قال كمال لنفسه:

- الخبيث، تصنع اللامبالاة، لكنني أعرفه تماماً ينغل حسداً، يلتقط ما يقال عن الآخرين بدافع الغيرة، لا ينام الليل إذا امتدح غيره في حضرته.. لقد صدق كل كلمة فأنا ممثل جيد، أجد روي الأحداث، وأقع السامع بصدقها.

وهز رأسه موافقاً على صحة أفكاره.. ثم أسرع نحو بيته، متذكراً موعد عودته، حيث سينفتح الستار.

وسرعان ما أنساه شعوره بالنجاح، ما حدث على باب الصديق، وتضخم هذا الشعور حتى صار غروراً يزداد فيعمي عينيه، ولولا أن الولد يقوده لسقط في حفرة، أو تعثر بسطل قمامة.. خيل إليه أنه يرى صديقه يقضم أظفاره، وقد صدق كل ما سمع، نعم، يمكن للمرء أن يضيف للحادثة مشهداً أو اثنين، وإذا كان ماهراً، فإنه سيقنع الآخرين بحقيقة كل ما حدث، أي موهبة من الله بها علينا.. نحن معشر الممثلين؟ وسأله الولد يسحبه من أحلامه:

- متى ستنتهي المدرسة؟

الولد لا يحب العلم كما يبدو، معه حق، العلم يقتل الخيال، والخيال حسان المظلوم، يجوب به العالم، والولد واحد من المظلومين، ولأنه لم يعرف كيف يُحبُّ طفله بالمدرسة فقد صمت، وشد الولد بقبضته الصغيرة على ساعد والده، يستجديه حديثاً..

وشب على قدميه، يقسم أنه أحسن من كَتَبَ وحفظ، وكان يسبق والده بخطوات لينظر في عينيه مؤكداً قسمه بكل ما وهب الله الأطفال من براءة، وغبوية، وحرارة، بحركات اليدين

الصغيرتين، برقرقة الدمع في العينين، باحمرار الخد،
وبالصوت العذب..

وانتشى الوالد، يستمع إلى أخبار انتصارات ولده، وعن فوزه
بجائزة الاجتهاد الأولى، قال لنفسه: لديك الآن مبرران للفرحة.

مر ببائع الخضار، فخطر له أن يأخذ بعض التفاح، لم يكن
يحمل نقوداً، وصفحته عند البائع سوداء، لا موضع لرقم واحد
فيها:

- «إننا نحتفل يا عم، فغداً سأسافر إلى الخليج، نعم، لقد
امتدحني ناقد كبير هذا اليوم ورشحني للعمل في مسلسل
تلفزيوني، لحساب شركة خليجية كبيرة...».

وفرك البائع يديه يقدم اعتذاره عن المضايقات السابقة، فتركه
كمال أشرف، ومضى مشيعاً بنظرات الحسد.

وأحس بالفرحة، وهو يردد «بكره السفر بكره» لكنه ارتد
إلى حزنه، وقد انقبض صدره، يا للإنسان يكذب، ثم يصدق
كذبه، ولكن هذا الشرط لازم للممثل، فإذا لم تؤمن بصدق
أقوالك، كذبك الآخرون.

وانطلاقاً من هذا الإيمان، قص على زوجته ما حدث، كان
يطلق ذقنه، وينظر إلى نفسه في المرآة فجأة أحس بنفسه يتفرج
على نفسه، كان يندهش حين يستدعي الكلام الاندهاش، ثم يفرح
ويغتم.. صار دون أن يدري، متفرجاً، وممثلاً!

يالها من قدرة رائعة على الكذب والتمثيل، لقد صدق سعيد
سرحان عندما امتدحني، صحيح أنه كان يشرب القهوة على

حسابي، ولكن هذه مسألة أخرى بالتأكيد، وعاد يحقق بالوجه المتورد أمامه في المرأة، أراد أن يصفق، خطر له أن يصرخ: برافووو.. ازدادت ثقته بنفسه، بمواهبه، وهو يرقب ردود أفعال زوجته تتابع كلماته، تفرح، وتنصت، فتكاد ترقص.

- اتفقنا على لقاء تلفزيوني أيضاً!

أضاف دون اهتمام، وغسل وجهه، ثم ارتدى ثيابه واستعد للخروج.. فقبلته على خديه، قال لنفسه:

- هذه هي المرأة.. تحب أن تكون خلف رجل ناجح.

دعته إلى شرب كأس/ مليسة / لأنها تجلي الصوت وتطلقه، أحس بنعمة الزواج للمرة الثانية، كانت المرة الأولى، عندما أزاح قطعة القماش البيضاء المشبكة عن وجهها.. ومنذ صباح اليوم التالي، مشى في طرقات دمشق كالثور، دون أن يحقق انتصاراً واحداً، منكسراً يعود إلى بيته، تلقاه زوجته بالشتائم والبكاء.. وضحك على نفسه، حين اكتشف غبائه، هاهو يعيدها إلى عهدته، لم يكفه الأمر سوى كلمتين، فأين كان هذا الدواء ولماذا لم يعثر عليه من قبل؟ دور الأمر في رأسه، فوجد له تبريراً، لقد اكتملت موهبته الآن، فتجربة الكفاح الطويلة، لا بد تدفع المرء إلى العطاء، ولقد أن أوان النضج، ليس سهلاً على الإنسان أن يقنع الآخرين بما لم يحدث، وأن يقودهم إلى الإيمان به، مالم يكن ممثلاً أساساً، وسعد باكتشافه، فخطب قدميه متشوقاً إلى تلك اللحظة التي يندفع بها إلى الخشبة قادماً من عتمة الكواليس، حيث هو وحيد ومهمل، ومنى نفسه بانتصار ساحق..



وكعادة أيّ زوجين عندما ينجبان الأولاد، ليتحدثا عنهم، عندما لا يبقى مايقال بينهما، فقد هزت المرأة رأسها بأسى وهي تحدثه عن صغيرهما الشقي، كانت تكره كسله في اللغة الأجنبية وتعد ذلك دليلاً على تخلفه، بل وربما على انحطاطه الاجتماعي، ما يؤكد ذلك هربه المستمر، والذي يهدد مستقبله الدراسي كله..

تجمد كمال أشرف للحظات، كمن تلقى طعنةً مباغتةً في الظهر، أحس بالإعياء، لم يزعجه تغيبُ الولد، ولا كسلهُ المستديم، ما ألمه هو أن يصدق كلام ابنه بكل تلك البساطة، أزعجه أن يكون مخدوعاً، تذكر العينين الصافيتين، احمرار الوجه، والكلمات المتلاحقة المندفعة دون تنظيم، القدرة على إقناع رئيس الريبيين نفسه، فأئى شيطان صغير مخادع؟

وأحس نفسه يمشي على حبل في الهواء، تمنى لو يتوقف العرض هذه الليلة، فجأة تلاشت كل تلك الثقة العظيمة بالنفس، بقي فوق كرسيه خائفاً من خيانة قدميه، إذا وقف فجأة! فقد القدرة على القيام بأي عمل.. استغرقت أفكاره، فلم يضرب الولد، أو يكسر صحناً، أو يمزق كتاباً، كان كمن ألقى به من عل، إلى الأسفل يهوي، ولا قرار..

اعتذرت الأم، ولامت نفسها، أسفت لأنها عاجلت فرحته فقتلتها، هونت عليه المسألة، فرحة بهذا الاهتمام المفاجئ بالولد. أراد أن يقول لها ليس الأمر كما تظنين، فلتذهب مدرسة الولد إلى الجحيم ولتندثر اللغات الأجنبية بما فيها الفرنسية، فلست أهتم بها، ما يهمني هو أن يسحب الولد الغطاء عني، أن يعريني

أمام نفسي، ويمدّ لسانه ليقول لي: أنت لا شيء، كل قدراتك على إقناع الآخرين بصدقك، فنك كله، ماهو إلا جزء صغير مما أملكه، أنا الطفل..

وبقدرة المرأة على استجلاء أعماق الرجل وكشف حقيقته، عرفت أن الكلمات عاجزة عن إعادة المرح إلى روحه، فمدت يدها تداعب شعره، قالت له أحبك، أفرح بك، ثم أعادت تقبيله، فاستغرب، سأل نفسه: ما الذي غيرُها؟ لم يستطع النفاذ إلى أعماقها، أحس يدها ثعباناً يمشي على صدره، لميجرؤ على الحراك، مندهشاً ينظر إليها، كانت تبدو صادقة حقاً، ولكن الولد أيضاً كان يتخفى خلف براءة الأطفال وصدقهم، فأين الحقيقة؟ عذبه هذا الشك الذي أطل برأسه فجأة، فعجز عن مجاراتها، وضرب رأسه بيده!

- يا إلهي، أيكون الرجل مجرد ممثل يقوم بدور الصديق؟ وتكون المرأة التي تشرب العصير مجرد ممثلة أيضاً؟ وتلك الأحاديث عن أصلها وفصلها وغنى أهلها وشهاداتها العليا، مجرد كلمات يحفظها الرجل، ليلقيها في تلك السهرات، بكل قدرة الممثل وحنكته؟

وهذه المرأة إلى جانبه، هل تقصدُ ما تقول حقاً؟ أم إنها مجرد ممثلة ماهرة، تتقن لفظ العبارات وتحفظ جمل الغزل والحب لتتخذ مُتفَرِّجها.

أيكون كل ما يقوله الناس للناس، تزويراً للحقائق، وافتراء على الواقع، تزييفاً للأحداث، وتنميقاً للمشاعر، أيكون الرجل والمرأة والولد قادرين على التمثيل في مسرحية كبرى تدعى

الحياة؟ تماماً كما هو الحال على الخشبة؟

ونظر حوله، يرى المكان على حقيقته، دقق النظر في ملامح ولده يبحث عن أوجه الشبه بينهما، أيكون هو الآخر مجرد كذبة قديمة؟

وانطلق تاركاً بيته مشرع الأبواب، مشى في الليل على غير هدى، بحث عن يقين واحد في حياته الماضية، ضايقه أن يتهدم كل شيء فجأة، فقد ارتباطه بالبيت، وإيمانه بالزوجة، وحبه للولد، والأهم هو تلك الثقة، ذلك التميز الذي كان يظنه من نصيب الممثلين وحدهم، وتوقف عند سعيد سرحان مستعيداً كلماته الحقيقية، كانت تحتوي مديحاً حقاً، ولكنه مجرد تمثيل يتقنه النقاد أيضاً، أحياناً لقاء فنان قهوة.. ووقف كمال أشرف وقد انتهت رحلته على جبل قاسيون، ومن هناك شاهد دمشق، تسهر تحت ضوء القمر، حيث تتزاحم البيوت التي يقطنها البشر الكذابون.. وتفرج كمال على المشهد طويلاً..

حين وصل المسرح لم يكن العرض قد بدأ بعد، انخرط بين جموع المتفرجين، أطال النظر فيهم هذه المرة، لفت انتباهه تشابك الأيدي، وتلك الأحاديث الأنيقة المعطرة، والضحكات المتألفة، شعر بالغثيان، أراد أن يقف أمامهم، وأن يصرخ بأعلى صوته:

- ستوب.. أفلوا الستار..

ولكن يد مساعد المخرج قذفت به إلى الداخل، تجاهل شتائم زملائه الصغار، ونظرات الكبار المترفعة عن الحديث.. لم يعتذر عن تأخره، كان كمن فقد النطق.

وأخيراً صعد الخشبة، وقد انزاح الستار أمام عينيه، ولدهشته، اختتم الناس دوره بالتصفيق، فأدهشه هذا.. وقف مبهوتاً، لم يغادر الخشبة، تصفيقُ الناس يدوي في رأسه، وكمن يعانق امرأة للمرة الأولى، أو كمن يكتشف طعم الألم الممض، أو الفرحة القصوى، حيث تشترك هذه الأشياء كلها في أنها تجعل الإنسان عاجزاً، صغيراً، ممتلئاً دهشة، وقف على الخشبة، وقد اكتشف الحل، والدواء!

لقد صفقوا، وهم عالمون بحقيقته، تقبلوا كذبه، ودفعوا لأجل ذلك النقود، وهدروا الوقت، كان يعرف مثلهم تماماً، ان هذه الأقمشة المدهونة ليست جدراناً، وان هذا السيف من خشب، لكنهم وتحت ضغط تلك المتعة وطلباً للحياة، تواطؤوا معه، استمعوا إليه، وقد شاركوه دفن الحقيقة، ليصدقوا ما يسمعون، ويؤمنوا بما يرون..

في ذلك المساء، عاد كمال أشرف إلى بيته، وفي نيته أن يحدث زوجته عن نجاحه، وأن يضيف مشهداً أو اثنين، طمأنه أن زوجته ستساعده فتصفق بعد أن تصدق.. وقرر أن يقبلها حينما تقبله، ولأنه ممثل يتقن الأدوار كلها، تماماً مثلما يقوم الآخرون بأدوارهم، قرر أن يلعب دور المتفرج أيضاً حين يحدثه الولد، أو تغالزه المرأة ورغم إدراكه لصعوبة هذا الدور، فقد كان متأكداً من نجاحه، ومن أنه سيحصلُ عندها على الراحة.

القسم الثاني

1. وحشة
2. أربعة وجوه لمأساة السعدي
3. مدينة ليست للبيع
4. موت مدرس التاريخ العجوز

كانت ترقبه بعينين ناعستين، من خلال رموشها، بدا لها كأنه يرقص، الشمس تنسحب نحو المغيب مخلفة وراءها أفقاً شاحباً يبعث على البكاء. تذكرت عدد المرات التي جلست فيها ترقبه يشرب الشاي، وينظر نحو الماء القليل المنسرب عبر قناة صغيرة تتحلق حول جلستها تحت شجرة التوت القديمة. كم كان حضوره يبعث الدفء، ويشيع في المكان ألفة تفتقدها بعد رحيله.. يوماً بعد يوم، تؤكد لها أنها صارت تعيش على ذكراه القديمة، انتظاراً لعودته مع مطلع كل صيف. وفي كل مرة كان يجلس هنا، لينظر إلى الماء، تاركاً الشمس تسقط خلف ظهره، حيث الأفق يبعث على البكاء.

أكثر ما يثيرها: أصابعه الطويلة، خاصة خنصر يده اليسرى الملتوي عند الوسط قليلاً، فإذا التقط نظرتها، تركت كأسها، تستند على الطاولة، لتهرع نحو المطبخ، تغيب قليلاً، ثم تعود

راكضة، منكسة الرأس، خشية أن تتعثر بشيء ماء، ممسكة كوب الماء البارد، فيأخذه، وقد يلمس يدها عفواً، فتعود إلى جلستها، عاقدة ذراعيها أمام صدرها، وقد احمر وجهها، وبدت وجنتاها شاحبتين، كالأفق خلف ظهره، ذلك كله، كان يثير البكاء.

وإذا نهض، نهضت..

مشى نحو الدرب الصغيرة المغطاة بالأشجار، مشت خلفه مرتبكة لفرط فرحتها، أحست أغنية تنبعث من أعماقها، على إيقاعها تنتظم خطواتها.. كم أرادت أن تخبره بسرها هذا، لكن خجلاً لا يبارحها كان يردها، فتغذ السير خلفه لتصير إلى جانبه.. خطواته الرشيقة قلما تمنحها هذه الفرصة، فتكتفي أحياناً بالنظر إليه من الخلف متفحصة ظهره وكتفيه العريضتين، تكاد ترى عضلاته واضحة تحت قميصه الداخلي، إحساس كهذا كان يدهشها، فتعصر يديها، وتتعثر. تتمنى لو يطول الطريق، إلى الأبد، إلى حيث ينبثق الماء ويسقط المطر.

وذات مرة، توقف على بعد خطوات أمامها، ثم استدار نحوها، فأسرعت إليه ممسكة ذيل ثوبها تمنعه عن الريح، وتشدّه على جسمها النحيل، تطايرت خصلات شعرها القصير، كشفت رقبتها النحيلة وزادتها استطالة، فبدا رأسها هاجماً إلى الأمام مرتكزاً بقلق على كتفين ضيقتين، وصدر ضامر. ووجدت نفسها تستدير نحو البيت، خلفها، حيث كان والدها يعمل في الداخل، أحست بالخجل من نظراته وبالذنب من التفاتتها، دفنت رغبة جامحة في أن تفتح ذراعيها وتطبقهما حوله، لتتحسس عضلات ظهره المشدودة.

قال لها:

- أحياناً أحس المكان جميلاً.

سبقته إلى هذا الاكتشاف، عرفته منذ زيارته الأولى، كل شيء أشرق فجأة.. وجوده حول المكان إلى غرفة نوم، عشية ليلة الاحتفال، مجللة بالبياض، مخضبة بالبخور، كالحلم، كانفلات الزغرودة، ساعة انطباق الباب خلفهما.

في غيبته أحست أنها تريد أن تذهب وراءه، وفي عودته اكتشفت فيه أشياء لم تكن تعرفها فازداد حبها.

تعلقت عيناها بخصلة شعره الناعمة المنسدلة فوق جبينه بدلال،.. كانت عيناها تضحكان كلما نفض رأسه، مزيحاً إياها عن عينيها! لم تتساءل يوماً كيف بداحبها، لكنها تذكر أول سفرة له نحو المدينة،.. حين عودته كانت تقف عند الباب، منحنية الظهر لفرط طولها،. رأته قادماً من جهة الأفق ودون أن تدري، انسابت دمعة حارة من عينيها، فساح الأفق الشاحب، وانخرطت في البكاء. وصارت تبكي عندما يأتي، وتبكي عندما يذهب، وتسرق نفسها أحياناً من حضرته، لتبكي.

قال لها:

- المكان يصلح لعاشقين، لأن الحب يتجلى في أبهى وأكمل صورته حين تسانده الطبيعة بجمالها الوحشي. فالمرء في أحضان عالم كهذا يعود إلى أصله، وأصل الإنسان: الحب، فهو خصيصته، وبذرتة الأولى، ومن لم يحب، لم يكن.

تمنت لو يسترسل، ويقول كلاماً كبيراً يفرحها، ويبيكيها لأنها

لم تكن تفهمه، وبعد كل زيارة يزداد كلامه صعوبة، لكن خصلة شعره الناعمة بقيت فوق جبينه الأسمر، ولم تفارق الضحكة عينيها الناعستين، كلما هز رأسه، معيداً خصلة الشعر العاصية إلى مكانها، سمعته يقول:

- الحياة لا تطاق بلا حب! إنني لا أقول ذلك وحسب، بل أحسه حقاً، وأتدرب ساعياً إلى زيادة قدرتي الحسية تلك، فالحب موجود، كل ما علينا هو أن نبحت عنه وأحياناً أن نترك له السبيل كي يلقانا. أرادت أن تقول له نعم، وأن تعصر يديها، لكن الخجل أسكت لسانها. لم يكن ينتظر إجابة فتابع، كمن يحدث نفسه:

- وما هو الحب؟ حقل بلا أسوار، شيء من ذات الله، أرض ناهدة نطل منها على البشر، جسر بين عالمين، مزيج من أرض وسماء.. إنسان وملاك.

شحب لونها، أحست نبض عروقها، فأسبلت عينيها على منظر ظهره المتموج، أحست بالدفء، بلمسة يد حنون تقرص أذنها، تنساب حول عنقها الناحل الطويل.. في كل زيارة يقول الكلمات نفسها، وتشعر باليد ذاتها، بالأصابع الخشنة تداعب رقبتها..

وتدقق في صدرها إحساس بالإيمان، أرادت أن تستند إلى أقرب شجرة تمر بها، وتتنظر نحو السماء، حيث النجوم وحدها في الأعلى.. وأن تنادي بصوت مجروح:

- يارب.. ارحمني، واحفظه.

تقدم الوالد يلقاهما، نظر نحو الشاب مباشرة، ثم نقل بصره إليها. فارتعشت، حين تحدث، فاجأها أنه لم يقل شيئاً مما كانت تتوقعه، تتمناه، وتخشاها. شرح كيف أن روث الحيوانات لم يعد كافياً لدعم الأرض وإعادة حيويتها بعد كل موسم، فعصرت يديها متذكرة كيف كانت تُبعث من جديد.. عندما جال بخاطرها أنه سيذهب عند صباح الغد، أحست بالعطش، سقسقة المياه على حواف الساقية الإسمنتية يبعث على البكاء، يثير عطشها لليل طويل لا ينتهي.. ظلت على صمتها.. توقف الوالد عن متابعة الحديث، وكما يحدث عادة، عندما يكون الإنسان في المنتصف، بين اثنين، تنتابه رغبة مفاجئة، في أن يأخذ يد كل منهما، ويشابك الأصابع، وقد يرغب أحياناً في ستر هذا العناق بمنديل أبيض.. قال الوالد - هل فتيات المدينة، أجمل من بناتنا؟

ابتسم، تحدث كعادته بثقة ساحرة، كرر عباراته القديمة نفسها، أحست بالخوف حين خطر لها أن والدها قد يوقفه، أه لو كانا وحدهما لقات له، نعم كلامك حلو، مدهش فاتن..

- الحب، هذا الشيء النادر الطاهر، أصبح مبتذلاً، سريعاً، سهلاً، زائفاً، ضالاً «كان يتقن استنساخ المفردات، والاسترسال» لكن الأب قاطعه بعد أن ألقى نظرة خاطفة إلى ابنته:

- وأنت؟ ألا تريد أن تتزوج؟

فقال متفاخراً:

- إنني أعرف كيف أقرأ الحب الحقيقي! فهو يتفرق على صفحة العين كالدمع، كتلويحة منديل أبيض. لهذا لن تغرر بي

أي امرأة.

أعجبها أن يقرن الدمع بالحب، أدهشتها قدرته العجيبة على الكلام، وطريقته المتأنقة في نطق الأحرف، كالعازف الماهر.

نظرت نحو والدها العجوز، فابتسم مشجعاً، نسيت قسوته، أحبته، حزنت لأنه سيموت يوماً، وأرادت أن تبكي لأنها فكرت في موته، تمننت لو تذهب إلى المطبخ، لتأتي بالماء البارد، وتبكي فرحاً، وهي تستمع إلى رنين صوتهما، حيث تستطيع هناك فقط، وبعيداً عنهما، أن تبتسم، وأن تقول لهما:

- أحبكما.

توقف الأب، زرع قدميه في الأرض، عرفت أنه يتهيأ لقول شيء صعب. كانت تعرفه جريئاً، لا يستحي، كالقمر، حين يكشف نفسه في الليالي الحزينة، حيث الإنسان وحيد، في بستان موحش، أشجاره صلبان. قال: أريد أن استأنس برأيكما، في موضوع يخصصنا نحن الثلاثة.

احمر وجهها خجلاً. ارتعشت أصابعها الطويلة. أغمضت عينيها.

- لقد طلبوا يد ابنتي.. أنت تعرف أن زواج البنت ستر للوالد وسعادة لها، وقد حان الوقت.

وتطلع نحوها، فنكست رأسها، وقد فاجأها الأمر. نقل الأب بصره إلى الشاب، فصمت هو الآخر.

ارتفع صوت انسياب الماء في مجراه، فأرادت أن تبكي، تحسست غصة في حلقها، لم يعجبها أن تُعرض هكذا، لكنها

تمنت لو يقول شيئاً، لو يتحدث عن الحب، بكل تلك الثقة
الرجولية العظيمة. ومن بعيد انطلق موال ينادي امرأة ما.
فنظرت نحوه، وفي عينيها ترقب وذهول، فقال:
- مبروك.

عند الصباح حمل حقييته ومضى. كعادتها كانت تقف عند
الباب، ظهره انحنٍ لفرط طولها، راقبته وهو يسير نحو الأفق..
يصغر شيئاً فشيئاً حتى يتحول إلى نقطة في البعيد.
ثم تلاشى فجأة.. ودون أن تدري.. انسابت دمعته، فساح
الأفق الشاحب. وانخرطت في البكاء.

الأحد 26/7/1987

أربعة وجوه لمأساة السعودي

مبتكرات «أبي خة» AIYaa

حينما أسند إليّ دور عطيل أحسست بالفرحة، لست بحاجة لإطالة الشرح كي أفسّر وأفصّل أسباب تلك السعادة، يكفيكم أن تعرفوا أن دوراً كهذا يعد حلم الممثلين، ومبتغاهم، فهو يأخذ بيد المغمور منا، إلى دائرة الضوء، وي طرح من بنى مجده على المقابلات الصحفية المأجورة، وحديث المدّاحين، وذلك التصفيق الأجوف المنبعث من العتمة الزائفة.

قد تتساءلون، لماذا تنتطح لما لا تقدر عليه؟، أجيبكم هو طبع الإنسان منذ الأزل، كم كسر جبالاً، وكم كسرت أضلعه الجبال.

شارع 29 أيار مزدحم على الدوام، الناس المتشابهون يغدّون السير في الاتجاهات المحددة لهم، لا أحد يحيد عن الخط المرسوم، هائماً على وجهي بينهم، أبحث عن نقطة بدء، سمّها إن شئت نقطة ارتكاز فلكل شيء نقطة تتناوله منها، للإبريق مسكة، وللباب المغلق مقبض وأكرة، وللإنسان يدان، وحيرتي بلا منتهى غير عابئ بشتائم من يرتطم بي، أمضي نحو المسرح، مشتت الأفكار، أحوم حول مشكلتي، من الخارج وحسب مثل جيش يحاصر قلعة منيعة. قد أصل متأخراً، لكنهم توقفوا عن مقارعتي وتأييبي، قد أتوقف فجأة وأصمت، كان المخرج يحرص على توفير الجو المناسب حولي، فيضايقتي ويضخم إحساسي بالإخفاق، أنتم تعرفون أن هذا يدعى ذكاء، خبئاً في صمته، كان يقرعني، وفي حرصه عليّ، طلب عنيد بزيادة العطاء.

صرت لا أنام. لا تشعروا بالشفقة نحوي، فقد سبقتكم إليها، فأنتم بها أحق، أيها الناس الذين تسيرون في شارع 29 أيار لا

تحيدون عن الخطوط المرسومة، حيث الإشارات توزعكم وتجمعكم، وتسوقكم كالقطيع، وعندما تلتهم الفكرة، حيث تجيء من أعمق ما يمكن للمرء أن يتصوره، كدوامه من ريح، سأشعر بالسعادة، وبطعم الوجود الذي يتجمع في كلمة واحدة اسمها النجاح.

خطر لي ذات يوم أن أغسل وجهي، ففعلت، لون الوجه الأسود ثوب لا لزوم له، بوجه عار صعدت الخشبة، فصفق المخرج، قد تقضي أياماً في البحث عن المفتاح، وقد تضرب رأسك بالجدار، دون فائدة، وبلحظة واحدة، لحظة مهمة، حيث الأفق يحيط بالأرض الصغيرة، ويتسلل الفراغ إلى الرأس، يشمخ أمام عينيك ما كنت تبحث عنه، أي سخرية هذه؟ فاركضوا أيها السائرون في شارع 29 أيار، حيث تبدوون بمبنى مجلس الوزراء، وتنتهون في ساحة الشهداء.

- «لا أهمية أيضاً لكون الرجل مغربياً، فالإحساس بالغربة ليس وفقاً على غريب الدار» عندما طرحت الفكرة على المخرج، عارضها، صارحني بخوفه من أن نفقد فجأة عطيل، وذات يوم سبقته إلى المسرح، فغرست رمحاً، ألبسته رداء بقناع أسود، وخرجت، فلم أعد.

أرضي غروري، أن أتلقى دعوة صريحة بالعودة إلى العمل، خلال الأيام القليلة التي انقطعت فيها عن التدريب لم أضيع لحظة واحدة كثور يدور، ولا ماء: مرة بعد مرة كنت أردد كلمات الدور دون انقطاع، فككت أحرفها لأكتشف ذلك الرباط الخفي الذي يصل أجزاءها، فيكسبها معنى لا تدركه العيون

الغبية. مثلراع من زرائب أميركا البعيدة، روضت الكلمات،
وسستها إلى حيث أريد،.. إن شيئاً يكمن في البعيد يقبع بانتظار
الفرس الذي يزيح عنه الستر، ويقبض عليه بيدين صلبتين.

حلمت أنني أفتح محارة وأجد لؤلؤاً، ورأيت نفسي طفلاً في
بستان، ورقة فورقة أزيع الوردية عن النحلة المختبئة، طنين في
رأسي، يشعرني بالدوار، عبثاً حاولت التخلص منه، قررت أن
ذلك دليل على الإعياء والتعب، لكن ليس مثلي من يتوقف قبل
الوصول إلى مرماه.

كنت أريده ذا قلب نابض بالدم.. شخصاً حياً، بلا أودية أو
أصباغ، كأنه قادم من شارع 29 أيار إلى قبو المسرح الصغير
المعتم، وكم مرة قاومت رغبتني، فلم أحرق نسخة المسرحية،..

حيرني أنني لم أصل إلى شيء مهم بعد، انتصاراتي الصغيرة
كلها لم تخلق فيّ الأمل، مثل شمس صغيرة وبعيدة، تنطفئ
مخلفة وراءها إحساساً بالخيبة، وبالظلام الذي تجوسه أفكارني،
عتمة تلك الفجوة الرهيبة تخطو نحو الخشبة، حيث أروح
وأجئ مثل رجل تائه،.. هذا الفم الوحشي الذي لا ينطبق.

أنتم لا تعرفون ماذا تفعل الخيبة في الإنسان! هل رأيتم حقلاً
بعد حريق؟ هل صادف أن استيقظتم في منتصف الليل، وظللتكم
قдрاً من الوقت، لا تعرفون أين أنتم؟، وكيف جئتم؟، وفي أي
وقت أنتم؟ ومن أنتم؟

المحزن، أنك لا تستطيع أن تطلب المساعدة من أحد، حتى
من زوجك، أو ولدك.

أكثر ما كان يعذبني: زوجتي.. بلاشك كانت تحبني وتؤمن بي، إنها خير زوجة كما يقال، كنت مهياً لأن أكون عظيماً، ما شد أزرني، هو ذلك الإيمان المطل من عينيها، تلك اليد الحنون التي تربت على الظهر، ثم تدفعك إلى الأمام، إلى حيث ينتظرك التصفيق المحموم، إلى الحلبة المسورة بالظلام، حيث تمزق الأضواء، وتفضح هذا الشيطان فيك، وتجعل منك إلهاً لكل البشر.

عادت ذات يوم من عملها، في الوقت نفسه تماماً، كانت تذهب وتجيء، وتعود بعد الظهر إلى مكتبها لتؤوب ليلاً، كل ذلك في مواقيت محددة، فيزداد حنفي، ويخطر لي أن أهشم ساعة الحائط، كنت أستيقظ ليلاً على دقائق طول الزمن، وأطيل النظر إلى العقارب المتحركة، فأكاد أحس اللحظات المنسحبة إلى الخلف، إلى المحرقة، إلى حيث يتحول كل شيء إلى رماد..

كنت في المطبخ حين عادت، أرقب شعلة اللهب الزرقاء المنبعثة من الغاز، هذا الحريق المنذلع، الاشتعال المتأجج، الذي أحرق صدر عطيل، وأطل من عينيه المحرورتين، المبللتين بالعرق والدموع، أي قدرة تمتلكها هذه الشعلة؟ وكيف تستطيع أن توقف طاقة الإنسان كلها على الإحساس، التي لم يختبرها ولن يختبرها أبداً! أردت أن أجرب، فمددت يدي، تجمعت أحاسيسي في اليد الممدودة، تحديداً في تلك المساحة الصغيرة التي تقترب من الشعلة الزرقاء، تكاد تلامسها، نهايات أعصابي، تفتحت مثل أنابيب تشفط هواء ساخناً، تصاعد إحساسي بالنار، بالجلد المحترق، أسعدني، وأذهلني هذا الإحساس الجارف بالألم، هذا الإحساس الذي يصل بطاقتي إلى أقصاها، فصرخت!

كان ولدي ينكمش على نفسه في الزاوية، دون أن يجروء على البكاء، وفي عينيه خوف طفل، ودهشة إنسان بكر أمام العذاب.

ركضت أمه تحتضنه، وتخبئ عينيه، فدفن وجهه في صدرها، بعد أن وافته الشجاعة، فاقترب البكاء. لم أجبها حين صرخت، شتمت، بكت، كنت منهكاً، كأنني قادم من حرب.

منظر زوجتي في المطبخ، تضم ولدي، لم يبارح رأسي، مثل قاض نزيه، يدين مجرمًا، غابت من عينها تلك النظرة الحبيبة، انزاح الستار فجأة، عن فراغ مضاء بشمس ساطعة، نور وهاج، وفراغ... وللفراغ صوت، وشوشة تتعالى، ولا شيء آخر، نظرة كراهية واحدة، كانت كافية لأن تهزني، وتطرحني بعيداً، حيث لا أرض لي..

ولم أجب، لأنني كنت مبهوراً متقطع الأنفاس، من يومها، صرت أطيل النظر إلى عينها، أترقب تلك النظرة العجيبة، وصارت تطيل النظر إلي، ترقب تصرفاتي، وتحسب سكناتي وحركاتي، أزعجني أنني مراقب، حتى أفكاري، خيالاتي، صارت تتلاطم، من جدار إلى جدار، لاحظت أنها صارت تعود باكراً ولا تذهب إلى مكتبها أحياناً، وإذا خرجت، تأخذ الولد إلى أمها، فصرت أنا الآخر، لا أعود إلى بيتي إلا قليلاً..

.. وذات لحظة وقفت وفكرت:

- لماذا تقلل من قدراتك وتستهنين بها، وأنت الذي يدعي الثقة والإيمان، ما تراه أنت صغيراً، وغير كاف، هوللناس، إنجاز وبطولة، فلا تدع إحساساً مريضاً يقضي على فرصتك، الثقة شيء لازم لكل خطوة، تصوبها، وتشد أزرها، فاقتل شكك بالثقة.. الشك.. تلك النقطة التي يتأرجح فوقها البشر، ذات

الشمال وذات اليمين.. هذا الفخ الذي لا مناص منه.

ونهضت فرحاً باكتشافي، فتابعني زوجتي بذات النظرة التي أكرهها.. نظرة الشك تلك.. وانتبهت إلى أن زيارات أمها قد صارت يومية تقريباً، وبدأت أعيد التفكير بتلك الأحاديث التي كانت تبدأها - العجوز - بخشية ووجل، يا إلهي، كم تعذبت يا عطيل، كم حاصرتك العيون تحصي حركاتك الغريبة أيها الطفل، حيث لا قوانين ولا خطوط تسيرك، ولا مواعيد أو مواعيت محددة تضبطك.

ترى هل كانت مصيبتك تكمن في شك الآخرين بك؟ بأحقيتك في أن تفعل ما تريد؟ وأن تحب وتزوج من تريد؟ وأن تحارب وتهاجم كيفما تريد؟ أم أنها كانت تكمن في قدرتك الرهيبة على الشك، الشك في نفسك وحياتك الماضية؟ ببطولاتك، وجودك كله، مؤهلاتك وميزاتك؟ في إمكانية أن تكون محبوباً، لتلك المرأة، لذلك البلد؟

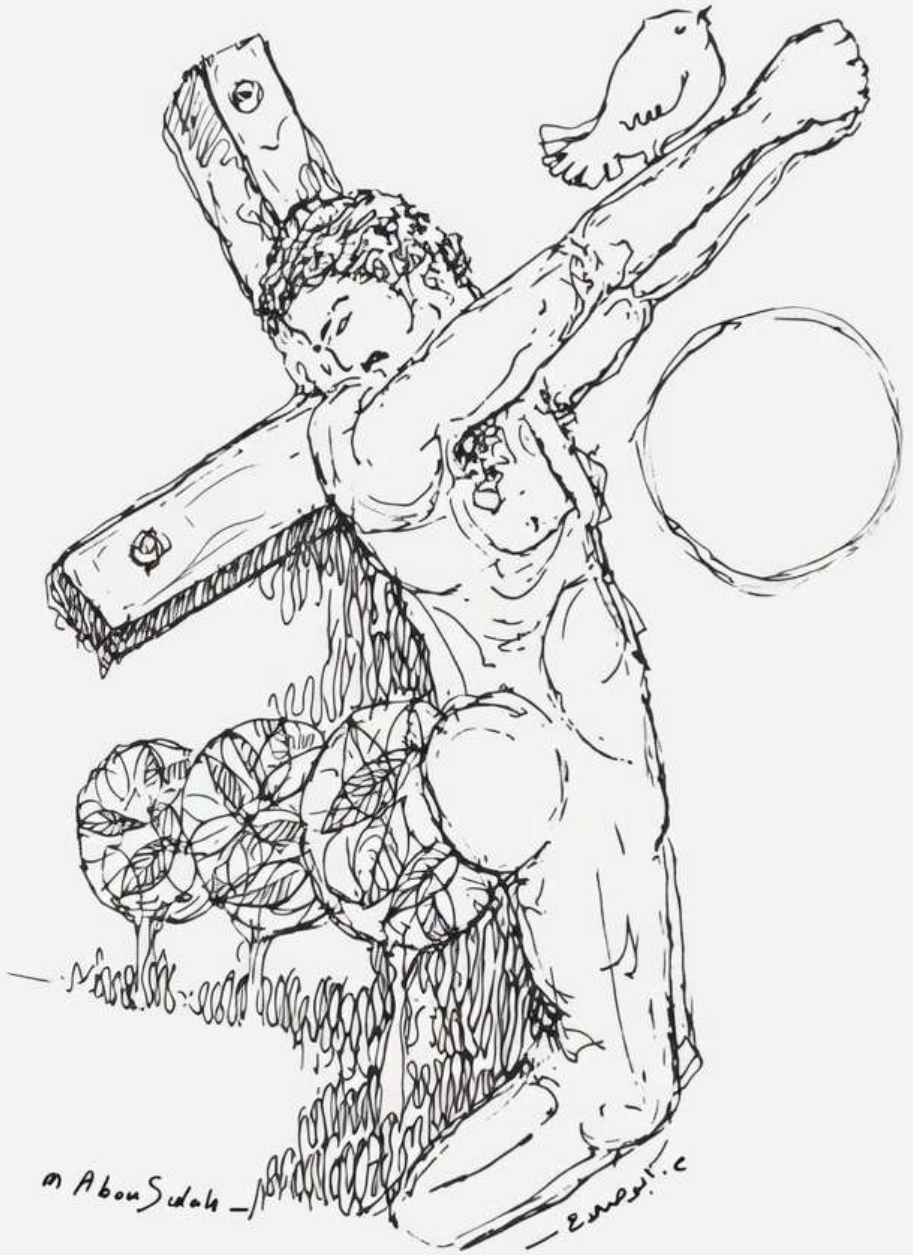
وإذا كنت تمتلك قدرة الشك تلك، فكيف لم تدقق إذن فيمن ادعبالإخلاص لك، ففادك كالأعمى نحو طرف الهاوية، فقذفت نفسك، إلى حيث يريد؟

ومثل شعلة اللهب تلك، اتقدت تلك الليلة على خشبة المسرح، كنت انطفئ، أحياناً، فأشعر برغبة حقيقية في أن أرفع صوتي، وأحدث ربي مباشرة، أن أصرخ بكل ما عندي من قوة، وأطيح بيدي في الهواء، ضاغطاً الصوت في حنجرتي، حتى يخرج مجروحاً، حاداً، مثل نداء بعيد، أت من رجل جريح في وادٍ سحيق.

خلال التدريبات التي تلت ذلك، حققت نجاحاً باهراً، حصدت كلمات مديح كثيرة، لكن الشعلة الزرقاء الملهبة كانت تعذبني، كنت أبحث عن ذلك الإحساس المكثف الذي يشق الجلد مندفعاً كشلال هادر إلى الفضاء، وكان يبدو بعيداً عن قبضتي.. وبدأت رحلتي تطول.. كيف أمسك ذلك الإحساس، وإلى الأبد؟ كل من حولي يصفق لي، وخوائي يمد لسانه، يسخر مني، فمن يعطيني اليقين؟ ومن أصدق حولي؟ وفي عيونهم ألغاز، لا يحلها أوديب نفسه. صرت أحرك يدي، وأنا أحدث نفسي، فينظر ولدي إلى أمه، فتبتسم الأم مشجعة، ثم تبكي في غفلة عنه وعني، لم أحس رغبة في مناقشتها، إن أيّ دفاع سيجعلني متهماً لا محالة، ولست كذلك، أحياناً أشعر أنها تتقصد زرع الشك في نفسي، بكل تلك الدموع الكاذبة، وتلك النظرة التي تفتح عيني على فراغ شاسع له صوت شبيه بحرف ش دونما انقطاع، تحتال عليّ، لتقودني إلى الهاوية التي تريد، حيث كل البشر هناك. مثل نسر في الأعالي حلمت، وأردت أن أكون يداً فوق لهب أزرق لا ينطفئ، في نظرة ولدي وحسب كنت أفيء.. هذا الولد يفهمني، أو إنه بحكم سنه، لم يعرف بعد، كيف يكون إنساناً، بشراً، وحسب.

وجاءت ليلة الافتتاح فصفق الجمهور طويلاً!

حين ننجز شيئاً، ننسى العذابات التي تكبدناها، ويصبح بوسعنا أن نغض الطرف عن هؤلاء الذين أسأوا إلينا ذات يوم.. وأن نغفر لهم كل تلك الألام التي جرّعونا إياها، لكن زوجتي لم تكن تفهم هذا الأمر، قلائل أولئك الذين يتمتعون بميزة الصفح والمسامحة، كان المسيح أولهم وأنا آخرهم. وقفتُ في الباب تنظر إلى الأكياس، وتقرأ عيني - كانت تتغزل بصفتي، وصارت تدّعي الآن أنهما غامضتان لا تهدآن.



m Abou Sidah

Emery

هل ينبغي لي أن أشرح هدفي؟ إننا أحياناً لا نعرف إلى أين تقودنا خطواتنا، لكننا نمشي، ومن واجب الزوجة، أن تساهر زوجها، أن تقبل فرحه كما هو، دون أسئلة، أن تكذب عليه، فتدعي القدرة على فهمه والإحساس به،.. لماذا أنا سعيد؟ لكنه سؤال يفسد السعادة، يعتقلها، يحرقها، ويذرها رماداً. فكيف أجيبها؟

« في هذه الليلة كنت أمشي وحدي، تصفيق الناس في أذني، لا يسكرني، فجأة عرفت ما أبحث عنه، لم أكن أريد النجاح في دوري وحسب، إنني أبحث عن شيء أعظم، وأصعب.»

لم أنم تلك الليلة، قلت لها كلاماً جميلاً، وأعددت مقاطع كاملة من دوري، دون أن أتقيد بالحركة المرسومة مسبقاً، ما ساءني هو أن تردّ زوجتي كل ما حدث إلى سكري.. صرت مطالباً - بتوضيح كل تصرف، عيناها تحولتا إلى إشارة استفهام كبيرة، استفهام يولده الشك فيطرح بدوره الشك، عند الصباح لم أشعر بالتعب، جسدي يضح بالحيوية، أحسست أنني قادر على فعل أي شيء، أسعدني أنني أقرب من ذلك الإحساس الرهيب، الذي خبرته مرة واحدة فحسب.

قد ينزاح الخمار عن عينين، فتقضي حياتك في طلبهما، وقد تقضي على حياتك، عندما تطلبهما! هكذا كمن يجره الهوى، مضيت دون أن تضايقتي تلك النظرات والأحاديث الخائفة التي تبدوها حماتي الغنية (لتروزني)، مجرد إحساس صادق بالشفقة، صرت أشفق على الذين لا أعرفهم وآسف على تلك السنين التي انقضت دون أن أحيها.

ولأنني أحب أن أكون نافعاً، فقد صرحت بشفقتي. كنت أكره تلكالسهرات الطويلة المملة، التي تفرضها علينا علاقتنا الاجتماعية، لم يعد يهمني مرضاة أحد، صرت واضحاً، في طريق واضح، خلف هدف واضح وبعيد، ممتع، في أن. هل هو ذنبي أن أكون مهياً لمستقبل مميز؟ ليس هيناً علي أن أجلس لأشارككم حديثاً عادياً عن أحوال الدنيا والبشر، بينما روحي تشب على قدميها لتتنظر عبر النافذة إلى الفضاء، هل هو الملل؟

قد يبدأ الأمر هكذا، بعد الظهر، أو ذات مساء، حين لا تعود الشوارع قادرة على احتوائك، ولا الكتب على إثارة اهتمامك، ولا محادثة الزوجة على تحريك رغبتك، وتفقد ملاعبة ولدك طعامها الحلو، فتسير هائماً على وجهك، لا شيء يرضيك، عندها سيخطر لك وأنت تعد القهوة أن تمد يدك لتلامس النار، لعلها توقظ أحاسيسك، أو تمر بشفرة الحلاقة فوق خدك، وتضغط بخفة أولاً، وحين تشعر بعدها ينغرس قليلاً قليلاً، يشق الجلد، ليصل إلى روحك، فيكشط كل ما تجمع فوقها، عندها، فقط ستكتشف أنك لم تكن حياً. فهل هو ذنبي أن أتقدمك إلى هذا الاكتشاف؟

كانت تبعدني عن هدفي، تقلل من قيمة ما أفعل، فتشكك فيه، الشك، نبتة الشيطان تلك! ماذا تقول لنفسك وأنت ترى زوجتك تخفي السكاكين وتغلق على كل شيء حاد، بالمفتاح؟

بكل بساطة تريد أن تقنعك بإمكانية قتل ولدك، فهل صرت خطيراً إلى هذا الحد؟

ورغم ذلك لم أحسّ بالحاجة لأن أشرح لها، شرحي سيزيد

الأمر تعقيداً، فإذا لم يقنعها الجوع المطل من عيني، ورفرفة روحي في الليل، فكيف تصلها الكلمات وتمحو كل ما بيننا؟

وتجرات أخيراً، فعرضت عليّ فكرتها الخبيثة، تريد أن تتخلص مني، فتدفع بي إلى مصحة الأمراض العقلية، صار بحثي يتعبها، وتصرفاتي تخجلها، وتخرجها أمام أهلها، وجيرانها لم تكن تعلم أنني أشفق عليهم جميعاً، وأني كالرسول، أتقدم العالمين، نحو حياة حقّة، ملؤها الإحساس والعيش.

ولماذا أدخل المصح؟ كي أشفي جرحاً في خدي، أو حرقاً بسيطاً في راحة يدي؟ أم لأداوي روحاً لم تعد ترضيها هذي الصحراء القاحلة، حيث الشمس تشتعل، مخلفة وراءها وشوشة تتعالى، ولا شيء آخر؟

من حقنا حين ندرك أخطاءنا، أن نسعى إلى إصلاحها، وما دمنا نحيا، فإن الألوان لم يفت بعد، لكنها، كعادتها، كانت تقف لي بالمرصاد، تعيق تقدمي، تقنعني بالبقاء في عملي، دون أن تعرف أنها تضع قيداً في يدي، وتدفعني للبقاء في المهزلة التي كنت أشارك فيها منذ الأزل، وبأي نجاح تحاول إبهامي؟ كيف أصدقها وأنا أشعر بخوائي،.. كالطبل الأجوف يعزف عليّ كائن لا أعرف من هو؟

فليصمت هذا التصفيق الفارغ القادم من العتمة، فلقد قررت أن أستقيل.. هل أنا مجنون؟

ليس سهلاً عليّ طرح هذا السؤال، والإجابة من طرفكم، ليست بالسهولة نفسها أيضاً، ذلك لأنكم مدعوون للتفكير طويلاً..

لا تظنوا أنني أعول كثيراً على تلك الحكمة التي تقول إن
الفنون نوع من الجنون، وإنّ بعض أنواع الجنون هي ضرب
من الفنون، لكن نظرات كل من أعرف تقف في وجهي
كالشرطي، تصرفاتي صارت مثار جدل، يتسابق إلى بحثها
الأصدقاء والأعداء، دموع زوجتي، بكاء الولد، أحاديث حماتي
وهمسات زملائي في العمل، إشارات الحيران، صلبان تحول
مدينتي إلى صحراء، لا إنس فيها ولا جان.

وحتى ذلك الوقت، بقيت على صمتي كأنني حصلت على
خريطة الكنز الأبدى، ولا أريد لأحد أن يسبقني نحوه..

أحياناً أجلس وأفكر في النتيجة التي وصلتها، يصيبيني
الحزن، وتجتاحني رغبة في حرق هذا العالم، وبالجلوس في
شرفتي لأنظر إلى النار، لكن سرعان ما تنطفئ جذوتي،
ويغمرنى إحساس المسامحة، ذلك الإحساس الذي جعل المسيح
رجلاً لا كالبشر، وأغفر لكل هؤلاء الذين قصفصوا أجنحتي
وشدوا وثاقي بالأرض والزوجة والأولاد. وكما أردتم دائماً،
عدت مثلكم، واحداً من الناس العقلاء الطبيعيين، إنني استيقظ
أحياناً فأتحسس بقايا كابوس غامض، كعصفور في قفص،
تراودني رغبة في الطيران، سرعان ما تموت..

صرت أحب الجلوس فوق أغصان الأشجار، وأن أنظر إلى
الناس الذين يسيرون، أشتاق لأن أندس بينهم، وأقرف من ذلك،
مستشعراً ارتفاع مكائتي، هناك في أعلى غصن.. كم حسدت
العصافير قدرتها على الطيران حينما لا تتسع لها الأرض..

أصبحت مسالماً، كما يقولون هنا، لا شيء يثير أعصابي

سوى ملاحقة العيون الشكاكة التي تطل من النوافذ، ومن خلف جذوع الأشجار، وأحياناً، أحسها تتعقبني.. وقبل أن أنام أستعرض ما حدث خلال النهار، فأوقن أنني صرت واحداً من الناس - الذين يحسون أيضاً بالرغبة نفسها، لكنهم يدفنونها بذعر - ربما كان هذا هو السبب، في أنني أصبحت قادراً على أن أمسك القلم، وأكتب قصتي.

* * *

انتهت أوراق وجيه السعدي، أثارت فيّ إحساساً مبهماً، هو مزيج من شفقة وخوف... ومن نافذة غرفتي في قسم الإدارة بالطابق الثالث، لمحته بين الأشجار، ساهماً مفكراً..

.. وابتعدت عن النافذة، أدفع رغبتني في النزول إليه، ماذا سأقول له، وكيف أمد له يد المساعدة.. خيل إليّ أنني سأفقد ذاكرتي أمامه، أنسى كل تلك النظريات التي تعلمتها عن الخدمة الاجتماعية، وما درسته في علم النفس، لأقف أمامه كالطفل. جلست خلف المكتب حائراً، إنها قضية شائكة كما يبدو، أرضملموءة بالرمال المتحركة مجهولة التفاصيل، وحشية التكوين، لا رجعة منها.. قررت أن أمضي في بحثي إلى النهاية، مرجئاً القضايا الأخرى إلى حين، فأعدت تصفح الملف الخاص به، قرأت تقارير الأطباء متجاهلاً كل ما ورد فيها، حتى وصلت أخيراً إلى ما ظننته قيماً، ويستحق القراءة.

لا أريد أن أنكأ جراحي من جديد.كلنا نحاول أن ننسى ما

حدث، ولا نقدر، لا تلمني، فأنت لا تدرك كم عذبتنا. كنت دائماً أحبك. كم مرت الليالي بقربك، لكنك لم تفهم ذلك، لم تقدّر حرصي عليك، صار يزعجك أن أقوم على خدمتك، تماماً مثل مريض لا يريد أن يعترف بمرضه، حين يأخذ الاعتراف صيغة الاهتمام، صرت تشك بي، و صار شكك يعذبني، أنا المرأة التي وهبتك كل شيء، تحولت حياتي إلى جحيم وأنا أراك على مقربة مني، أمام عيني، تذوي شيئاً فشيئاً، وبدأ اهتمامي بالعمل يقل، كل ذلك من أجل أن أكون قريبة منك، لا تظن أنه كان سهلاً عليّ أن أسلم بجنونك، كنت أزيح هذا الخاطر عني، كما يبعد عاشق الحياة كأس السم عن شفثيه.

في ذلك اليوم، حين عدت ووجدتك في المطبخ، تحرق يدك، وتصرخ كالمجنون، وقد تحجرت عيناك، أيقنت أن بيتنا آيل إلى السقوط، لو قدّر لك أن ترى تلك النظرة التي رمقتني بها، لفهمتني، وعرفت لماذا فعلت ما فعلت، يا إلهي، ارحمني، خفف عنه وعني، وأحفظ ولدي، هذا الولد هو مصدر شقائي وحزني، من حقي أن أخاف عليه، من أجلك وأجلي، كنت أحافظ على بذرة حبنا، ورباط قلبينا، بدأت أحس بالخوف، عندما تيقنت أنك تفلت من بين أصابعي، ويغوص في أعماق تلك الحمى التي أجهلها، فلجأت إلى أمي أطلب المساعدة لك أولاً.

صرت حساساً، تخطيء فهم تصرفات الآخرين، شكاكاً إلى درجة لم أعهدا فيك من قبل، ولم تعد تحدثني أبداً، تجلس ساعات وساعات دون حراك.

ما أزعجني هو أن أتحسس في نفسي ذلك الانطباع العاطفي

المبتذل، ذلك الشعور بالرتاء، الصادر عن رخاوة في القلب، وأنا الذي عاهد نفسه دائماً أن يكون موضوعياً، حيادياً، لا أدري أي سر شدني إلى وجيه السعدي، وجعلني أشعر بهذا التآلف العجيب مع رجل لا أعرفه. دقت النظر في الصفحات المتناثرة أمامي، فلم اكتشف فيها لغة مؤثرة، ولا موهبة خارقة في الوصف أو التحليل، بل إن بعض مقاطعها قد كتبت بعاطفية ممجوجة، بمهانة وضعف الضحية التي تستمرىء عذابها، وتختلقه أحياناً...

رغبتني الشديدة في مساعدته، جعلتني أوّمن بأن حالته طبيعية، أردت أن أدفع الباب بقدمي، لأفتح له الطريق، إلى حيث يريد، لكنني رغم ذلك لا أجرؤ على الوقوف أمامه، ولا على المشي معه، أخشاه كما يتحاشى الأصحاء، من يحمل أصل الداء.. ربما، أيضاً، كما يتحاشى اللصوص، شريفاً، هو شاهد على كل شيء!

ماذا لو صارحت رئيسي بهذه الأفكار؟ ومزقت كل ما كتب عن التكيف والصحة النفسية وما إلى ذلك من الكلمات التي كتبها بشر لم يعرفوا وجيه السعدي؟ يا إلهي، هل أصابتنني العدوى أنا الآخر؟ وبحركة لا إرادية دفعت الأوراق أبعد ما عني، ثم نهضت لأكون أكثر أماناً، ما زال يمشي تحت الأشجار ينقل بصره بين الأرض والسماء. فجأة اكتشفت ضعفه، تحت تلك السماء الواسعة، على أرض تغص بالناس المهرولين إلى أعمالهم، والعائدين منها، حيث لا وقت لأن تعرف نفسك، ولا لأن تنظر حولك، مسروقاً، جائعاً، مدفوعاً، محاطاً بالإشارات، ويوماً بعد يوم تصبح عاجزاً عن إخراج روحك من تحت ركام

الأحلام المنكسرة.. وقد أضعت السبيل إليها. توقف عند جذع شجرة، وبحركة تبدأ خفيفة يمرر ظاهر كفه على الجذع فتنتهي الحركة إلى سرعة جنونية مثل رجل ينفض عنه حريقاً، أو يمزق جلدًا متراكماً كجلد الفيل أو وحيد القرن. وكمن ينفض عنه التهمة، وتحت تأثير تلك الحمى..

عينك فقط تدوران في محجريهما، كأنهما تطاردان شيئاً مجهولاً، خطر لي أن أجمع الأصحاب حولك، فطردتهم بعد أن شتمتهم وألقيت بأغراضهم خارجاً، أنت تعرف كيف يصطاد الناس أخباراً كهذه، ويحولونها إلى فضائح.

هل تظن أنني تقبلت فكرة ذهابك إلى المشفى بكل تلك البساطة التي تتصورها؟ لكنك كنت تسير إليها بقدميك، ماذا تريدني أن أفعل وأنا أراك تحاول الانتحار بشفرة الحلاقة؟ كيف تريدني أن أمن جانبك، وأن أشعر بالأمان وولدي بين يديك؟ كيف يمكن للكلام أن ينسيني منظر الدماء تسيل على وجهك وتلوث عنقك وقميصك، منظرك وأنت تحرق بالمرأة، بذات النظرة التي أخافتني عندما وجدتك في المطبخ تحرق يدك.

وعندما تركت عمالك، كنت تتخلى عن آخر لوح في حطام سفينتك، آنذاك عرفت أن بيتنا قد تهاوى.. ولما أخذوك، بكى ولدك، وبكيت.. بعد ذلك بأيام، عندما اشتد شوقه، طلب أن يراك، لكن الطبيب المشرف على علاجك منعنا عن ذلك، من أجلك...

أنت تعرف كيف يبكي الأولاد طلباً لشيء ما، وكيف يزداد بكائهم عندما لا يحصلون عليه، لكن رؤيتك كانت شيئاً

مستحيلاً،.. ولم يتبق منك، إلا صورتك المعلقة على الجدار،
ترتدي ثياب عطل، والأضواء تلفك، تحوِّلك إلى طيف...

تخيلتها، امرأة جميلة، تضج بالحيوية، تلك الحيوية اللازمة
لإنجاز الأعمال العادية، في البيت وخارجه، مع الاحتفاظ
بالقدرة على قول كلمتين في المساء، لا بد أنها تمتاز بشيء آخر
جعلها قريبة إلى قلبه، ولا بد أنها فقدت هذا الشيء، أضاعته
ذات يوم، فنفر قلبه منها

هل قدر لها قراءة هذه الأوراق؟ ولو حدث شيء كهذا فهل
سيتغير موقفها؟ هل تقدر مثل هذه الكلمات على إعادة ثقته
بزوجها؟

كنت أطرح مثل هذه الأسئلة بفتور من يعرف الجواب،
وبإصرار من يتحسس في ذاته طعم الخير يدفع المرء لأن يقوم
بفعل ما..

حين نظرت من النافذة، وجدته يجلس على غصن شجرة
قريبة من السور، خلفه كان الشارع يغص بالناس، هل يعرف
أنني صرت مشدوداً إليه بقوة لا أفهمها، وأنني واقع تحت
سيطرته العجيبة؟ حاولت أن أفهم ما يدور برأسه، جسده مسترخ
بإهمال، بلا حراك يجلس، لعله لا ينظر شيئاً أمامه، كمنتصف
يلاحق خيالاته السماوية، هل يفكر بها؟

يراها طيفاً جميلاً، كما يحدث عادة عندما تخلص المسافات
والأيام زوجاتنا من كل عيوبهن، وتقدمهن لنا كالملائكة؟

وإذا ذهبت إليها لأقتادها من يدها، دون أجوبة أو إيضاح،
ودفعت بها إليه، فهل يرى فيها ذلك الطيف؟، أعرف أننا نعشق
أحلامنا، وأن الخيبة صنو الواقع والملموس، لكن تجاورنا في
الآلام يؤلف قلوبنا أحياناً، فهل أذهب؟...

لقد شفي الرجل، ولم يعد للحصار مبرر، وإذا كانت الزوجة
تخشاه، أو تخاف على الطفل من حزنه، فإنني سأعرف كيف
أطمئنها..

شعرت بالراحة وقد وصلت إلى قرار، ها هي ذي خطوة
باتجاه مساعدة الرجل، إن اعترافنا - جميعاً - بمشروعية بحثه،
وبطبيعية تصرفاته، سيقارب بينه وبين الشفاء..

أناقص نفسي؟ نعم؟ لقد وضعني هذا الرجل أمام خيار
صعب، بعد أن جردني من كل أسلحتي، إنه وضع غير عادل،
أن تمارس سيطرتك، بالكلمات وبالآلم، وبكل ما أوتي الإنسان
من ضعف، ومن قدرة هذا الضعف على إثارة الشفقة، ومن ثم
تُطالبُ بفعل؟ وتُحاسَبُ عليه..

هل أنا على صواب؟

وهل أتصرف بحكمة ودراية؟

أم أنني واقع تحت تأثير لا أدري كنهه، مأخوذ برغبة مجنونة
لرجل مجنون حقاً؟

أو أنني أحس دَيْناً لا بد من تسديده لأولئك الذين يذكروننا في
زحمة حياة كهذه - بأننا نعيش؟ وكمن يبحث عن علام على
الطريق، أو طير فوق بحر، يومئٍ لشاطئ، عدت إلى البحث بين

الأوراق دون أن أعرف ما أبحث عنه..

وفجأة، وجدت ورقة صغيرة بتوقيع الولد، كانت شيئاً لم أحلم به، كلمات بلا تنميق أو تصنع، أو خجل،..

سفرك طال، أمي لا تعرف متى ستعود، أو أنها لا تقول لي، عد لنلعب، لم أنس شيئاً، هل تذكر ألعاب الطريق؟ كيف كنا نلف وندور كاللؤلؤ حتى ندوخ.. أستيقظ في منتصف الليل في الوقت نفسه الذي كنا نخرج به خلسة إلى الشوارع الفارغة، أحلى مشاوير، إذا كنت متضايقاً من أمي فسوف تسامحك عندما تعود، لقد حدث هذا معي أنا أيضاً، كنت ألعب فكسرت الصحون وجرحت يدي، لم تستمر في خصامي، سامحتني بعد أن أقسمت لها، أنه مجرد لعب. ولسوف تسامحك إذا عدت. أنا بانتظارك.

توقفت عن القراءة، وقد ازدادت الجلبة القادمة من الطابق الأرضي، لم أميز أصواتاً واضحة، أو شيئاً غير طبيعي، كان من عادة الممرضين تقييد أحد الأشخاص لإعطائه مهدئاً، إذا ثار، لم أعد إلى الأوراق، هاجس مرعب يشمخ في رأسي، يبدأ كالبذرة، لي طرح قلقاً وخوفاً مبهماً، صار وجهه السعدي كل القضايا، وكل الأشياء صارت وجهه السعدي، لم أنهض لأنظر عبر النافذة، خفت من الصدمة، فأخرتها قليلاً، أصخت السمع فلم تصلني إلا وقع خطوات، لقد هدأ كما يبدو، حصل على السكينة بعد أن أورتني هذا القلق المضني.

لقد سعيت إلى عذابي بقدمي، نصبتُ نفسي قاضياً، وسمحت لها بالإطلاع على أقوال الأطراف وإفاداتهم، فصرت ملزماً بإصدار الحكم.. وأن أمضي إلى أكثر من ذلك، فأحقق العدل. ووضعت بطاقة الموت الصفراء حداً لكل تساؤلاتي، إذ أغلقت الباب خلف وجيه السعدي، حيث لا يملك المفتاح أحد.. تأخرت.. غالباً ما نداري ضعفنا بالنقاش، ننشغل بالتحليل، وبتقليب الأمور على أوجهها، نكسب الوقت، كي نترك للسماء فرصة أن تتدخل، فتعفيننا من الفعل.

أعقب ذلك إحساس جارف بالغضب، ورغبة في توجيه اللوم نحو شخص ما، كنت أريد الحصول على البراءة التي لن تتحقق إلا بوجود متهم آخر..

مسجى فوق غطاء أبيض ملطخ ببقع الدم، جرحان في رأسه، وكسور لم يحدد عددها في الأضلع وعظم الساق، فمه مزوم بشدة، بقايا نظرة قرف في عينيه، تؤكد انطباع الاشمئزاز الذي قابل به قاتليه، صورة لن تبارحني أبداً، ستقض مضجعي، وتعتقل أحلامي، تسيطر على خيالاتي، وتزيدني تشويشاً، إنني لا أصلح حقاً للمهنة التي اخترتها، لقد تفوق علي بموته، عراني، لم يتوقف عن كشفي، ومحاصرتي بالأسئلة التي تورث الشك، نبتة الشيطان تلك، كيف مات، ولماذا؟

لم أتقبل فكرة الانتحار، إن رجلاً يحب الحياة بكل ذلك الجوع لا يمكن أن يتركها طائعاً، لا يمكن له أن يخون ثقتي وقد علمني الحياة، وانتبهت إلى المفردة الطائشة، القتل، إن ما حدث كان من تدبير البشر، فعل خارجي، اغتصب عنوة، كل تلك الرغبة

الجارحة في الحياة، شبراً، شبراً، وساعة ساعة، منذ الولادة،
وحتى اللحظة الأخيرة..

ولكن ماذا لو سقط وهو يحاول الهرب قفزاً من الغصن إلى
السور ثم إلى الشارع؟ أتكون تلك هي الفكرة التي كان يلاحقها،
بلا حراك، فوق غصن الشجرة؟ لم أتابع، على الفور استبعدت هذا
الاحتمال الذي يسيء للرجل بعد موته.

ولم أصل إلى يقين، لم أجزم بانتحاره على الرغم من أنني
كنت أدرك حبه للحياة، وقرفه من حياته، رغبته في الإقبال
عليها، وفشله بالإحساس بها، ولم أناقش فكرة سقوطه أثناء
الهرب، لأنني كما اكتشفت، كنت أريد له ميتة لا تقل غموضاً
عن حياته..

ولأنني لست رجل بوليس، فقد أعدت الأوراق إلى الملف،
وتهيات للدخول على رئيسي، توقفت أمام الباب وتساءلت -
- هل سأستطيع التعبير عن نفسي، وأن أشرح له القضية؟

مدينة ليست للبيع

مكتبرات «أبي خا» «Alyaa»

النهر يسبح فوق الأوساخ، كان رائقاً كالمساء، وكانت جثة المدينة المتفسخة تمج قطعان الناس المهولين بسرعة في كل اتجاه، نظرت حولي ثم سحقت عقب السجارة وألقيت به إلى القاع، فتهاوي كفراشة محترقة، راقبته وهو يجتازني ثم يغيب تحت الجسر، تأوهت، كمن يحترق فوق الجمر، وكنت وقتها قرب الماء.

«أشتهي النظر إلى المدينة من أعلى».

قلت لنفسي وأنا أبعد صاعداً الجسر وكانت المدينة في الأسفل تتلوى تحت ضربات الأقدام الثقيلة.

فاتن مكاني وكاشف للسر، وكسلطان يأبى النزول عن العرش بقيت هناك أدقق في ملامح المارة المتشابهين وفي واجهات المحلات المتشابهة وإعلانات البيع الكثيرة - المتشابهة، وبدت الشوارع ضيقة تكاد تطبق على الناس الملتصقين بالأرض كالظل الباهت.

- لندافع عن أنفسنا في حضرة الحضور، ليكن حضورنا ممتلئاً بالحياة، ولتتملئ الحياة بنا.

ابتسمت كطفل أمسك بالعصفور، أعجبتني الدعوة الخالدة، بدا صوتك عميقاً وكأنه يأتي من زمان، من قبل أن يقف السجان خلف الباب..

لمست يدك الملتفة حول الحاجز، فارتجفت كمن يغتسل في النهر صباحاً.

- خائفة؟

سألتك، ثم شددتُ بباطن كفي على ظهر يدك، اعتذر عن عجزِي، وكنْتُ أريد أن أقول لك: لن أبيع.

شدُّ على يدي بغتة، فأدرتُ وجهي نحوه، لم يكن قصيراً ولا طويلاً، كان باهتاً فاغتصبتُ ضحكة مية. وشتمتُ ذاكرتي بنت الكلب، فلم يبتسم، ضغط على يدي فطقطقت أصابعي، ثم تكسرت، كدت أن أبكي، لكنه ضربني بين قدمي فانشغلت بوجعي:

«يبتعد وجهك كالشاطيء، هل نلتقي غداً، أو بعد غد؟ فيأتي صوتك مذبوحاً متعباً ولا يصل.. وأضيع بين الزحام قبل أن ينكسر النهار على صفحة النهر...».

أنزلوني عن الجسر، مخذولاً مهزوماً كنت في المقعد الخلفي، وبدت المدينة كأنها تنسحب إلى الخلف عشية حرب خاسرة، وكنا نتقدم..

- إلى أين؟ سألت.

ضحك السائق، فلمحت أسنانه البيضاء في المرأة، كان ناعماً وأنيقاً كثوب زفاف نظيف، ثم غمز بعينه فضحك الرجل القاعد إلى يميني، ضحكا حتى شعرت بالخجل فتنفصت عرقاً ووددت لو أنني أنوب كالملح.

- كأننا غرباء.

الإعلانات من حولنا: شقق للبيع، سيارات، أراض، أثاث بيوت، أطفال وأشجار، ونساء..

أحسستُ بالحزن، انكمشتُ روحي، فانكفأتُ فوق يدي..
غطاء الطاولة الأخضر ينفرش كبساط، يجتاز جدران المكان
السميكة، يهدم بناء القهوة التي نجلس فيها، يزحف نحو الشارع
حتى يغتسل في النهر، أمسك يديك، ونركض نحو الجبل.

- لا تحاول أن تصرخ.

أمر الرجل الباهت. وهو يدفع بكوعه في سرتي، لم أرد،
لمحت رجالاً وبنادق وبوابات، الشارع يضيق بمحتليه، أصوات
الباعة تحتل رأسي وكنت مكموماً على المقعد كخرقة بالية،
حدقت في الوجوه، كنت أبحث عنك، للحظة خيل إلي أنني
لمحت عينيك تتلصصان على المنظر من خلف زجاج النظارة.
ثم انسدل شعرك فوق زجاج السيارة، فشممت رائحة عطرك
تنسل من النافذة.

- أنتِ صدفة في قاع البحر. وأنا عاجز عن فهمك، عيناكِ
طافحتان بالدمع وقلبي مشقوق نصفين.

- وماذا بعد؟ تسألين.

أهرب نحو الجبل، وجهك الجوعان يطل علي، يفاجئني.. أمد
أصبعي أتحسس خط الحياة في يدك وهو ينحدر، وقبل أن أصل
إلى النهاية، يقرصني الجوع فأتوقف. ولا أجيّب..

- أنتِ أليف.

قال الرجل الباهت، يشكرني. صارت البوابات والشوارع
وإعلانات البيع وراءنا أما أنتِ فبقيت معي، في طيات الثياب
وفي رائحة جلدي..

- سأل: أين تسكن؟
- أجبْتُ: في طرف المدينة.
- الناس هنا يعيشون، لأنهم لم يموتوا.
- قلت لي. فانكمشتُ فوق الكرسي. كانت أصابعك باردة، كاللحم الميت المعلق بالجنازير..
- قلت لي: أظرفنا تموت.
- ثم بكيتِ، أحسستُ عندها أن قلبي يخرج من فمي، استندت إلى الحائطِ لا أقع، يقتلني منظر المرأة وهي تبكي، رفعت عينيكَ نحوِي. وجهك الذي أحب معك كأرض مفلوحة حديثاً رموشكٍ مخضبة بالدمع والكحل قد ماع إلى تحت. ركعتُ على ركبتي، أخذتُ وجهك بين يدي..
- أعطني يدك.
- أخذتها، وقفتِ، فوقفتُ.
- تمسك بي. حتى إذا انكسرنا، ننكسر معاً.
- بعد أن تركتك، انفطر قلبي دمعاً وبكيت حتى انفلق رأسي
- هل تحب المدينة؟
- نعم
- حسناً إذن. سترها من فوق.
- الجبل مائل إلى الأمام، أنزلوني حتى الصخرة، ثم وقفنا، شعرت بالخوف، دفعتني أحدهم وتراجعوا. من تحتي بدت المدينة

غير أبهة لما يحدث كامرأة تنتظر الغالب وتبيع المغلوب لم أنظر خلفي حيث وقفوا، لفحتني نسمة باردة فاحمر أنفي وازرق خدائي. ازداد خوفي، فاجأني منظر لحمي الممزق فوق هوائيات البيوت وعلى رؤوس المارة فأغمضت عيني على صورتك وسمعت صوتاً.

- الآن يمكن لنا أن نتحدث.

تركتُ يدك. وقفتِ قبالي، ثم انكسرتِ. عرفتُ أنك تبكين، قلت: - لقد انهزمتُ. أنا ضعيفةٌ حتى الانهيار، قررتُ أن أبيعهم الذكريات والأسماء والعناوين، أريدُ أن أشتريك.. أن نمشي دون أن يعترضنا الخوف. ثم انفلتِ من بين أصابعي كالحلم، هل نلتقي غداً؟ أو بعد غد؟ لكن صوتك أتاني مذبحاً متعباً: فلم يصل.

- ماذا تريدون؟

متوحشاً، قلت ذلك.

اقترب الرجل الباهت، خفت من عينيه، فلم أنظر نحوه مباشرة.

- ماذا تريدون؟

- الأمر بسيط، شرط أن لا تعارض.

- لا شيء يهم. قل.

- أما زلت تراها؟

وعندما لم أحب، تابع:



m Abou Salah

ع ابو صلاح

- إننا نعرض عليكما حياتكما وهناءكما، لقاء ثمن بخس..
انفجرت ضاحكاً، حتى رغرغت عيناوي، فاحترار الرجال،
طوحت يدي في الهواء فازدادوا حيرة،
- مجنون أنت؟

لم أرد.

ضربني على ظهري، ثم ضحك، لطمني الآخر على وجهي،
وقال الثالث:

- هذه مجرد مزحة..

كرر الرجل الباهت:

- في المرة القادمة سوف نتركك تجرب الطيران فوق المدينة
التي تحب.

ثم انطلقوا هابطين الطريق نحو المدينة. نظرت حولي.. فجأة
سقط المطر، شممت رائحة تراب معجون بالماء، وددت لو
أتمرغ في الأرض الحمراء.. نظرت إلى تحت - كانت المدينة
تضجع في الأسفل، تغتسل بالماء، صوبت وجهي نحوها...
ونزلت.

10/3/1984

موت مدرس التاريخ العجوز

مكتبات «أبي خلد» «AlYaa»

ولدي نبيل:

عندما تقرأ هذه الأوراق، أكون قد شبعت موتاً.. ماذا أقول لك؟ وكيف أعترز؟.. لقد حاولت طوال حياتي أن أجمع لك شيئاً.. لكنني - ويا للهول - لم أترك لك سوى مشكلة كبيرة، سؤال يفتح باب الشك على مصراعيه ثم لا يغلقه.. وستهب عليك رياح عاصفة، وتدهمك ليال طويلة، ويهجر الأصدقاء، وتتوء بحملك، ولو بعد حين.

يا ولدي:

لا أدري كيف وجدت نفسي في هذا المأزق.. فلقد كشفت هذه الحادثة ما لم أدركه منذ سنوات. ومثل رجل أذهله منظر الجثة التي يقوم على حفر قبرها، واجهتني الحقيقة بكل بشاعتها!! وما كنت أحسبه ماضيّاً أنا، لم يكن يخصني.. أما المستقبل - ويا للغرابة - فقد صرت راغباً فيه..

اعترف أننا معشر الرجال الطاعنين في السن، نرغب في أن يبقى كل شيء على حاله، وعلى هدي الكائن كل شيء سيكون، وإذا بالمفاجأة تحاصرني، وتقلب العاصفة حياتي كأنني ما نعمت يوماً بالسكون، ما حلمت بالراحة فوق أرض صلبة، واثقاً مطمئناً.

ولماذا أنا؟

لقد أساء الاختيار - رحمه الله - هذه مهمة تليق برجل ما زال شبابه بين ضلوعه - مثلك أنت - فلقد كنت أمشي نحو الحفرة المعدة لي.. انتظر النهاية برضى الشيوخ وعجزهم، بكل

استسلام الكبار لمصيرهم، متقبلاً وحشية الأمر بخشوع الضعيف المحكوم عليه بالذي لا بد منه، وكأن الأمر طبيعي، تتقبله الضحية وترضى به، ويعد له الصغار عدته.. ثمن الصندوق وأوراق النعوة، وقطعة الأرض الصغيرة.. وعندما جاء، غير ذلك كله، بعث في الرغبة بالعيش، علمني كيف أرفض، فبدأت أسائل نفسي: ألا يمكن دفع هذه النهاية، وتأجيلها؟ ألا يمكن الإفلات منها؟.. مناقشة قضية (الموت) أمر مهم لنا، نحن الأحياء، فهي على ما فيها من تذكير بأننا سننتهي ذات يوم، تشير بوضوح لا يرد إلى أننا ما زلنا نحيا؟.. وإلى متى؟ عندما كنت أشتغل في الصحافة ناقشت هذه المسألة من جوانب كثيرة لا أقدر على تذكر تفاصيلها الآن.. نسيت الجمل والكلمات والصور، لم يتبق سوى خوف مستديم قد يكون من مستلزمات الإقامة في المشفى، حيث يبدو هذا البناء بكل ساكنيه، بممرضاته وأطبائه الذين يرتدون الثياب البيض، بملاءات الأسرة ذات اللون نفسه، وبرائحة الجدران المميزة، قطعة خارج حدود الأرض، مكاناً بين عالمين، معبراً لا رجعة منه.

ولدي العزيز:

لا أريد أن أطيل عليك، فأنت كعادة الشباب متشوق لمعرفة ما يخصك.. لكن مهلاً واستمع حتى النهاية فالحمد لله أنني شهدت، ففي ذات مساء يا ولدي، وأجمل ما في الأيام مساءاتها، استطعت أن أتحدث إليه مباشرة.. كان المطر يسقط في الخارج، والسكون يخيم على الأرض.. السكنينة تتسرب إلى النفوس فتهدئ من روعها، تكسبها القدرة على الفهم، وعلى الإحساس بالآخرين، هكذا، التقت أعيننا بلا اتفاق، وبلا سبب واضح

أيضاً، طال اللقاء.

في ذلك المساء، عرفت أنه مدرس تاريخ قديم وأوسط وحديث في قرية نائية، لا يعرف سوى التاريخ، أقصد أنه لا يعرف الحياة، سجين كتبه، لا يغادر غرفته هذه، مريض بداء مجهول، وأمل الشفاء حاضر،.. بدأت القصة بوخزة في الخاصرة، ثم تطورت إلى غثيان بسيط، أعقبه دوار، فلكل رجل سقطة مهما كان قلبه مفعماً بالإيمان والحياة والأمل. هذه المرض فحمله بعض رجال قريته، أخذوه إلى المحافظة هناك عملوا له تحليلاً وأدخلوه مشفى حكومياً، ثم قالوا له: إن العاصمة طلبته. وضعوه في سيارة إسعاف وجأؤوا به إلى هنا، كانوا بانتظاره منذ زمن بعيد، بمساعدته سيقدمون للتاريخ والإنسانية اكتشافاً طبياً جديداً.

قلت له: ما هي نسبة النجاح؟

فقال لي: عندما عرفت الدكتور محمود، وتعرفت على فريق البحث كاملاً، شباب وبنات، أكثر من عشرة، شعرت باطمئنان كبير، أما الموت، فهو إلى جانب كل منا، دائماً، أبداً، مع كل نفس. وأنا عجوز، وليس عندي ما أخسره.

قلت في سري هذا رجل مؤمن، شعرت أنني مشدود إليه، مأخوذ بحماسته وإيمانه، لم أنم تلك الليلة، نهض رجل الصحافة من بين ركाम المجلات والصور القديمة.. ها أنذا أحظى بموضوع من نوع جديد، أعيش تجربة تاريخية عظيمة دون أن أدري، أجاور بطلها، أطل على عذاباته وهنائه وآلامه، أو اكب مسيرته بمحض الصدفة، أو الضرورة.

في صباح اليوم التالي، شعرت بحركة غريبة تعم الجناح، كان نظيفاً هادئاً، يعج بالعمال والأطباء، بعد ذلك بقليل، تقدم رجل أشيب الشعر - عرفت فيما بعد أنه مدير المشفى - دخل غرفة صاحبي وأغلق الباب خلفه، غاب دقائق قليلة ثم خرج غاضباً..

وخلال الباب، استطعت أن أراه، مكوماً فوق سريره، محمر الوجه يكابد نوبة ألم جديدة.

بدا لي أن روحه تصارع علة غريبة، صراعاً لا هوادة فيه، صراع وجود كما يقال على الصفحات الأولى للجرائد الصفراء..

كنت أصحو ليلاً على صراخه المتقطع.. آلامه تفوق ما يشعر به البشر عادة، تطفح عيناه بلون قاتم، مائل إلى السواد، ومن بين شفثيه يسيل زبد أصفر، تغور الدماء من وجنتيه وترتعش يده كأنهما جناحا عصفور بردان.. من يستطيع أن يكون حيادياً أمام آلام كهذه؟ من يقدر أن يتفرج دون أن يتقدم ليتخطى هذا الباب؟ صرت أراقبه صباح مساء.. أحصي الزوار، وأجتهد في معرفة هوية الداخل والخارج، أتجسس عليه وأخترع المبررات لأدخل غرفته، لألقي نظرة عابرة على ملفه لأسمع ما يقوله الأطباء، وما تتهمس به الممرضات وما يفعله حارسه الجديد، أصبحت حياتي مرهونة بقضيته وتراجعت اهتماماتي كلها أمام غزوه.

السماء استعادت زرققتها، بدت صافية فوق الأرض المبللة حديثاً، وعلى بساط الحديقة الأخضر، انتشر المرضى

المختلطون بالزوار والنساء والأولاد، كان جاري في غرفته، يطل على المنظر عبر النافذة، وقد ازداد شحوب وجهه وصار جسمه ناحلاً هزياً.. ما الذي يحدث؟ ما الذي تغير؟ وقررت لحظتها أن أساعده مهما كلفني ذلك، من فوري ذهبت للسؤال عن الدكتور المشرف، قالوا لي: إن الدكتور محمود قد ترك المشفى، وهو قيد التحقيق الآن، أما الآخرون فأحدهم غائب، والآخر منقول، والثالث فتح عيادة خاصة، والرابع قد سُرح، والخامس في إجازة إلى أجل غير معلوم..؟

عجيب هذا الذي يحدث! كيف تفرقت مجموعة البحث كأنها لم تكن؟ لماذا هذه الحراسة المشددة، ما هو السر الذي يعرفه؟ وأي سبب ذلك الذي يعزله عن البشر؟ وحيداً في تلك الغرفة المطلّة على الحديقة المبللة بالمطر، والمزدحمة بالنساء والأطفال؟ إلى متى تظل تظل على الحياة ولا تغتسل فيها؟ وإلى متى أبقى هنا؟ انظر نحوك صامتاً عاجزاً ووحيداً؟

كنت أفكر في ذلك وأنا أطلع صحف صباح ذلك اليوم، هذه عادة المنقطعين عن الحياة، أولئك الذين لا يعرفونها سوى بالقراءة أو الفرجة..

فجأة عثرت على مبتغاي.. لم أكن أتخيل أن الإجابة على كل تساؤلاتي ستكون بين يدي، في هذه الأوراق الصفراء الرقيقة، الأوراق التي وهبتها حياتي فلم تعطني شيئاً.. صورته تنصدر الصفحة الثالثة، تحت عنوان كبير:

المريض يشكر الدكتور مدير المشفى، السيد المدير يقدم للعالم وللتاريخ اكتشافاً طبيّاً مذهلاً.. الاكتشاف يأخذ اسم السيد

المدير، ويسجل في المحافل الطبية والعلمية وفي صفحات التاريخ!

عزيزي نبيل:

لا أدري أين ذهب الرجل بعد ذلك، ولكن في مساء آخر أيضاً، دخل عليّ كالطيف، كان ناحلاً بشكل عجيب، دس في يدي ورقة صغيرة، ثم هم بالخروج، قبل أن يدهمنا الحارس، لمحت في عينيه نظرة عجيبة لم أستطع نسيانها، نظرة رجاء وتوسل، كأنني أملك أمر تقرير مصيره فأمدته بالحياة، كالغريق يمد يده ليتمسك بي، لم يكن يعرف أنه قد أقتلني من الأرض التي أقف عليها، ثم تركني وحيداً أمام لغز كبير.. بكل هذه البساطة يجد الإنسان نفسه متورطاً في أمر لم يرغب به..

لعت ذلك الفضول العجيب الذي يسكن روحي، فجأة تلاشى الهدوء الذي يحيط بي، كنت أفهم بحدسي كل ما يجري، رغم أنني لم أحدثه سوى ليلتين، ليلتين اثنتين من ليال طويلة لرجل يعشق التاريخ ويعلم تلاميذه كيف يحبون أبطاله وصانعيه.. اختلطت الأسماء وتماهت الأشكال، ثم تحولت إلى أطياف لا لون لها، تلاشت ليحل مكانها فراغ كبير، صحراء لا حدود لها.. تجمعت كل رمالها في كلمتين اثنتين: إنهم يكذبون..

غادرت المستشفى غير عابئٍ بمرضي، ذهبت إلى قريته، اجتمعت بالأولاد، أبلغتهم رسالته، قلت لهم: انسوا كل الدروس القديمة، وتوقفت عاجزاً أمام نظراتهم الخائفة المذعورة، وتساءلت: كيف يكون التصحيح؟ اكتشفت جهلي فعدت إلى

تجد فيها أرضاً أو بيتاً أو رقم حساب في المصرف، لن تجد تحفاً أو ذهباً.

قد تغضب، لست أدري، لكن كن على يقين أنني لم أرد كل هذا، إنها مسألة شخصية، أن تكتشف في أواخر أيامك أنك كنت مخدوعاً، ثم لا تستطيع أن تتأثر لنفسك، لا أريدك أن تعرف الحقيقة بعد فوات الأوان.. لأنني أحبك.

نبيل:

أنت شاب. ويمكنك أن تحاول.

10/9/1987

حاتم علي



حاتم علي (2 حزيران / يونيو 1962 – 29 كانون الأول / ديسمبر 2020) مبدع سوري متعدد المواهب، جمع بين التمثيل والكتابة والإخراج والإنتاج الدرامي والسينمائي. يُعدّ من أبرز أعمدة الدراما السورية والعربية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين والعقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، تميز بروية إخراجية ملحمة قادرة على مزج التاريخ بالوجدان الإنساني، وقد ترك إرث فني تجاوز الخمسين عمل بين مسلسل وفيلم وكتاب.

- **1962:** وُلد في قرية كفر حارب بالجولان السوري المحتل، المطل على بحيرة طبريا.
- **1967:** عاش تشريد طفولته في مخيم اليرموك بدمشق، حيث عاش تجربة اللجوء التي تشابكت لاحق مع مضمون أعماله، خاصة مسلسل **التغريبة الفلسطينية**.

- **1986:** تخرج من المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق (قسم التمثيل)، حامل إجازة في الفنون المسرحية، مما شكل القاعدة الأكاديمية لمسيرته الفنية.
- **1990:** تزوج من الكاتبة السورية دلح الرحبي.
- **أبناؤه:** رُزق بابنتين (غزل، غالية) وابن واحد هو المخرج عمرو حاتم علي، الذي تدرب على يده وساعده في عدة أعمال.
- **29 ديسمبر 2020:** توفي في القاهرة عن عمر ناهز 58 عام إثر نوبة قلبية مفاجئة.
- **1 كانون الثاني 2021:** شُيع جثمانه من مسجد الحسن بدمشق، وُوري الثرى في مقبرة الباب الصغير التاريخية.

المسار التألفي

بدأ حاتم علي مسيرته قاصاً وكاتباً مسرحياً قبل أن ينتقل للشاشة:

- **1988:** أصدر مجموعته القصصية الأولى **موت مدرس التاريخ العجوز** عن دار الأهالي بدمشق.
- **أواخر الثمانينات/أوائل التسعينات:** أصدر مجموعته القصصية الثانية **ما حدث وما لم يحدث**.
- **1993:** كتب للمسرح التلفزيوني **مسرح بلا جمهور وقضية عائلية**.
- **1994:** ألف أحلام خارج الزمن وحكايات عربية.
- **1995:** كتب **أمينة الصندوق، ثلاثية اللعبة، والكاميرا الخفية**.
- **1996:** أصدر نصوص: **آخر الليل، الحصان، السندباد الجوي، والخوف**.

- مسرحياً: تعاون مع المخرج زيناتي قدسية في كتابة وإخراج مسرحيتي **الحصار وحكاية مسعود** (لصالح فرقة القنيطرة).
- **2015**: صدر كتاب **الاستبداد المفرح: حوارات مع حاتم علي**، وهو حصيلة أربع سنوات من الحوارات مع الناقد والمخرج الفلسطيني فجر يعقوب، وأعيدت طباعته تكريماً له بعد رحيله.

المسار التمثيلي انطلق كمثل في أواخر الثمانينات، وتنوعت أدواره بين البدوية، التاريخية، والمعاصرة:

- **1988**: البداية مع المخرج هيثم حقي في مسلسل **دائرة النار**.
- **1989**: **الكابوس** (إخراج مأمون البني)، **الأخطبوط** (إخراج محمد بدرخان).
- **1990**: **هجرة القلوب إلى القلوب** (إخراج هيثم حقي)، **الزاحفون** (إخراج طلحت حمدي).
- **1991**: **كهف المغاريب** (إخراج غسان جبيري) بدور فايز.
- **1992**: **السيرة العربية** (إخراج غسان جبيري)، **الخشخاش** (إخراج بسام الملا).
- **1993**: **قصة حب عادية جداً** (إخراج محمد عزيزية)، **أبو كامل ج 2** (إخراج علاء الدين كوكش)، **أحلام مؤجلة** (إخراج هند ميداني).
- **1994**: **الجوارح** (إخراج نجدة إسماعيل أنزور) بدور شهاب.
- **1995**: **الكاميرا الخفية** (إخراج مأمون البني)، **ستائر الصمت** (إخراج مازن كايد العواملة).
- **1996**: **العبايد** (إخراج بسام الملا)، **الغريب والنهر** (إخراج هشام شربتجي).

- **1997: أمانة في أعناقكم** (إخراج علاء الدين كوكش)، بنت الصرة (إخراج بسام سعد).
 - **1998: النصية** (إخراج غسان جبيري وسامي جنادي)، **مرايا 98** (تفصص عدة شخصيات ضمن حلوله من إخراج)، **الحقد الأبيض** (إخراج سالم الكردي) بدور البطولة سامر الزهار.
 - **1999: مرايا 99.**
 - **2000: الرجل س** (إخراج علاء الدين كوكش).
 - **2001: قوس قزح** (إخراج هيثم حقي).
 - **2004: التغريبة الفلسطينية** (من إخراج) بدور رشدي.
 - **2005: عصي الدمع** (من إخراج) بدور سميح.
 - **2006: زيارة خاطفة والسلام** (إخراج رامي حنا).
 - **2008: 8ملم ديجيتال** (إخراج ابنه عمرو حاتم علي) بدور مدير الشركة.
 - **2009: أصوات خافتة** مع النجمة أمل عرفة بدور كمال.
 - **2015: العراب - نادي الشرق** (من إخراج) بدور نورس.
 - **2016: العراب - تحت الحزام** (من إخراج) بدور نورس.
- الدوبلاج:** أدى صوت الراوي في المسلسل الكرتوني **الأميرة الجميلة**.

المسار الإخراجي (مسلسلات وأعمال سينمائية)

انتقل للإخراج منتصف التسعينيات، وقدم 25 عملاً تلفزيونياً طويلاً، إلى جانب أعمال سينمائية وثائقية وروائية:

- **1995: فارس في المدينة.**
- **1996: فيلم آخر الليل** (حصل على أول جائزة إخراج له من مهرجان القاهرة).
- **1997: عودك رنان.**
- **1998: سفر، مرايا 98.**

- 1999: مرايا 99، الفصول الأربعة (ج1)، فضاعات رمادية.
- 2000: عائلتي وأنا، الزير سالم(يُعد نقطة تحول فنية كبرى، حصد جوائز عربية واسعة).
- 2001: صلاح الدين الأيوبي(دُبلج و عُرض في ماليزيا، تركيا، اليمن، والصومال).
- 2002: صقر قريش، الفصول الأربعة (ج2).
- 2003: ربيع قرطبة(اكتملت به الرباعية الأندلسية).
- 2004: أحلام كبيرة، التغريبة الفلسطينية.
- 2005: عصي الدمع، ملوك الطوائف.
- 2006: على طول الأيام، ندى الأيام.
- 2007: الملك فاروق.
- 2008: صراع على الرمال(عُرف سابق بـ أيام الثأر)، فيلم الليل الطويل(عن نص لهيثم حقي)، فيلم سيلينا(غنائي طويل)، فيلم العشاق(روائي طويل مقتبس عن أحلام كبيرة)، فيلم قصير شغف.
- 2010: مطلوب رجال، أبواب الغيم.
- 2011: الغفران.
- 2012: عمر(من أبرز أعماله التاريخية، عُرض في رمضان).
- 2013: تحت الأرض.
- 2014: قلم حمرة.
- 2015: العراب نادي الشرق.
- 2016: العراب تحت الحزام.
- 2017: أوركيديا، حجر جهنم.
- 2018: كأنه إمبارح.
- 2019: أهو ده اللي صار.

المسار الإنتاجي

أسس حاتم علي شركة إنتاج خاصة به لدعم الأعمال الجريئة وتمكين الجيل الجديد:

- **2006**: إنتاج فيلم **علاقات شائكة** (إخراج ابنه عمرو حاتم علي).
- **25 ديسمبر 2007**: الإعلان الرسمي عن تأسيس شركة **صورة للإنتاج الفني**.
- **2008**: إنتاج مسلسل **طوق الياسمين** (إخراج علي محي الدين علي)، فيلم **8 ملم ديجيتال**.
- **2009**: إنتاج فيلم **ميكي ماوس** (إخراج عمرو حاتم علي).
- **2008**: إنتاج الفيلم الوثائقي **عراقيون في منفى متعدد الطبقات** (إخراج فجر يعقوب).

الجوائز والتكريمات الرسمية

- **1996**: أفضل مخرج – مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون عن **آخر الليل**.
- **1997**: أفضل مخرج – مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون عن **سفر**.
- **2000**: الميدالية الذهبية – مهرجان البحرين للإذاعة والتلفزيون عن **الزير سالم**، شهادة تقدير من نقابة الفنانين السوريين.
- **2001**: الميدالية الذهبية وأفضل مخرج – مهرجان القاهرة عن **صلاح الدين الأيوبي**، شهادة تقدير من نقابة الفنانين السوريين.

- **2002:** الميدالية الذهبية – مهرجان القاهرة عن **الفصول الأربعة (ج1)**، الميدالية الذهبية وأفضل مخرج عن **صقر قريش**.
- **2004:** جائزة أدونيا للدراما السورية عن **التغريبة الفلسطينية وأحلام كبيرة**.
- **2005:** جائزة أدونيا للدراما السورية عن **ملوك الطوائف وعصي الدمع**.
- **(موازية للأعمال):** ذهبية مهرجان تونس عن **ملوك الطوائف**، فضية مهرجان تونس عن **على طول الأيام**.
- **2007:** ذهبية وأفضل مخرج – مهرجان القاهرة للإعلام العربي عن **الملك فاروق**.
- **2009:** تنويه خاص – مهرجان روتردام للفيلم العربي عن **الليل الطويل**.
- **تكريم رسمي لاحق:** وسام الفنون والثقافة والعلوم من درجة النجمة الكبرى من رئيس دولة فلسطين محمود عباس، تقدير لتمسكه بالقضية الفلسطينية وإسهاماته الفنية والإنسانية.